فريدة "بين الحب والألم"
الكاتب: شحتة سليم
إخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 25629 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 083 - 6

دار الزيات للنشر والتوزيع **:Facebook Page**
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / **49351**

فريدة

"بين الحب والألم"

رواية

الكاتبة

شحتة سليم

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

الإهداء

إلى بناتي

علياء وسلمى ورضوى

وكل المحبين للحياة.

شحته سليم

❋ ❋ ❋

(1)

"ولدت كآلاف من يولدون

بآلاف أيام هذا الوجود

لأن فقيرًا -بذات مساء- سعى نحو حضن فقيرة

وأطفأ فيه مرارة أيامه القاسية"

هكذا قالت لي أمي في صغري، عندما سألتها في ليلة كهذه:

- كيف جئتُ إلى هذه الدنيا يا أمي؟

في البدء سكتت وكأنها لم تسمع، وعندما أعدت عليها السؤال ثانية، تهربت من الإجابة، وحكت لي قصة الغراب واليمامة، وعندما سألتها ثالثة، وقد أصررت على معرفة الإجابة بعد إحساسي بتهربها منها، قالت هذه العبارة التي لم أفهم منها شيئًا وقتها، ولم تحاول هي أن توضحها لي.

كانت أمي هي جليستي وصديقتي ومربيتي ومعلمتي، وأبي أيضًا.. حكت لي بأنها رأت والدي للمرة الأولى في أتوبيس النقل العام، كانت

هي تسرع للحاق بالأتوبيس الذي تحرك وسط زحام الركاب، وكأنها تسرع للحاق بقطار الحياة، فمد يده فكانت كيد مدت من خلال الموج لغريق، كما قالت هي، وأمسك بها إلى أن صعدت وجلست على الكرسي الوحيد الخالي، وبعدها نزل الذي بجوارها في المحطة التالية، وجلس هو.

شكرته بابتسامتها، وقال هو بأنه لا داعي للشكر، وأظهر خوفه من سقوطها تحت عجلات الأتوبيس وهي تسرع للحاق به. شكرته مرة أخرى وسكتت.

كان يحاول الحديث، وكانت هي تجيب بإجابات مقتضبة، قصيرة، وعندما سألها عن اسمها، كأن لم تسمع فلم تجب، وأحس بالحرج فسكت.

نظرتْ للبعيد، ثم أكملتْ: جاءت محطة نزولي فنزلتُ، وتتبعني هو بنظراته من مكانه. للمرة الأولى في حياتي أشعر بأن لي قلبًا يدق، لا أعرف أهي دقات استئذان بالدخول، أم هي جرس إنذار مما هو قادم.

مرَّ اليوم -أو الباقي منه- وحده الله يعلم كيف مرَّ، في اليوم التالي وجدتُه في المحطة الخاصة بي، في انتظار الأتوبيس، أو في انتظاري كما تمنيت، ألقى السلام وعرفته، ثم صعد معي الأتوبيس، وحاول هو أن يختلق حوارًا، وكان ماهرًا، عندما رأى في يدي رواية (السراب) لنجيب محفوظ، سألني:

- أتحبين القراءة مثلي؟

فرحت، قلما تجد أحدًا يشاركك ميولك واهتماماتك وهواياتك، فسألت غير مصدقة:

- أتحب القراءة أنت أيضًا؟

- نعم.. لقد قرأت معظم أعمال نجيب محفوظ. قرأت هذه الرواية عدة مرات، هي رواية جميلة حقًّا.

وكنت لم أكمل قراءة الرواية، فسألت بلهفة:

- ماذا حدث لـ (كامل) بطل الرواية؟

- الأفضل أن تقرئي بنفسك حتى لا أحرق لك الأحداث..

ثم استطرد:

- أكملي القراءة ثم نتناقش فيها.

تعجبت:

- نتناقش فيها!!

- نعم. عندما تكملين القراءة، إن لم يكن لديك مانع.

وفي اليوم التالي وجدتُه هذه المرة في انتظاري أنا، ألقى السلام وكأنه يعرفني منذ زمن، أو كأننا نشأنا معًا في أسرة واحدة كابن العم أو ابن الخال، أو كأننا أبناء حارة واحدة، أو أنه ابن الجيران الذي يقابلني على السلم فيلقي عليَّ السلام في الصعود والهبوط، ولم يسألني عن اسمي ثانية، أو الرواية التي أتممت قراءتها في تلك الليلة بالرغم من تجاوزها للثلاثمائة صفحة، ينظر لي بعينين حائرتين، يحاول أن يبتسم فتخرج الابتسامة قلقة، مرتبكة، يريد أن يقول شيئًا ثم يسكت، أو كأننا تقابلنا على غير إرادته هذه المرة التي تمنيتها أنا، كان شارد الذهن كأنه يفكر في المجهول، قلقًا يتعجل الوقت، ينظر في الساعة ثم في الطريق البعيد يترقب الأتوبيس الذي تأخر، كرر الفعل عدة مرات دون أن ينطق، أردت سؤاله عما يقلقه، لكنني تماسكت وتظاهرت بعدم الاهتمام.

جاء الأتوبيس وساعدني على الركوب، وجلس بجواري لكن لم يتكلم بكلمة واحدة، ظننته عندما يقابلني سيسألني عن الرواية، ورأيي فيها، وانطلق في الكلام عن الرواية، وكامل ووالدته ومنار زوجته، ولماذا اختار نجيب محفوظ هذه النهاية المفاجأة للجميع خاصة وفاة أمه في الوقت الذي كان ينتظر فيه كامل نشر خبر وفاة زوجته، ونتبادل الحوار طوال الطريق، وبالتأكيد بعد قليل، ربما محطة واحدة أو محطتين، سيتحول هذا الحوار ليكون عني أو عنه، لكن كل هذا لم يحدث، جلس والدك بجواري كما قلت، ولم ينطق بكلمة واحدة سوى "مع السلامة" عندما جاءت محطة نزولي.

اختفى والدك من حياتي لمدة خمسة أيام أو أسبوع كامل دون أن أعرف عنه شيئًا حتى اسمه، كنت أذهب للمحطة كل يوم على أمل اللقاء المنتظر، هكذا قال: "سنتناقش" وكيف سيكون النقاش إن لم نتقابل؟! كنت في البداية أنتظره في المحطة، أنظر في الساعة عشرات المرات كأني أنتظر عودة الحبيب المسافر الذي بصَّرت به قارئة الفنجان، يمر الأتوبيس تلو الآخر، إلى أن أفقد الأمل في مجيئه، وأنصرف ذاهبة إلى

البيت، وبعدها أحسست بأنه كان طيفًا، حلمًا جميلًا في حياتي واستيقظت منه.

مرَّ أسبوع كامل على ما أتذكر، كنت فقدت الأمل في رؤيته أو مقابلته ثانية، لا أقول نسيته؛ فمثل والدك لا ينسى، وفجأة ظهر من بعيد مسرعًا نحوي وقت انتظاري في المحطة، لم أستطع أن أخفي ابتسامتي أو فرحتي به، كنت على وشك أن ألقي بنفسي بين ذراعيه، مد يده بالسلام معتذرًا بإلحاح، وكأنه تأخر عن موعد مهم، وعندما أظهرت دهشتي وتعجبي:

– لم الاعتذار؟! لم يكن هناك موعد بيننا!

– لقد اتفقنا على مناقشة الرواية بعد أن تتمي قراءتها .

– لكن لم نتفق على موعد.

– الاتفاق على المناقشة هو اتفاق ضمني على موعد وإن لم يكن محددًا.

عرض عليَّ الجلوس معًا في حديقة الأورمان، القريبة من المحطة، فاعتذرت في بداية الأمر، وبعد إلحاح منه قبلت، كان عندي الفضول لمعرفة كل شيء عنه، ولمعرفة غيابه عني أسبوعًا كاملًا.

ذهبنا، وجلسنا في ظل شجرة كبيرة، وعندما سألته -عفويًّا- عن كل هذه الفترة التي تغيَّب فيها، قال بأنها ظروف خاصة به في المنزل. كانت في صوته نبرة حزن، وبعدها عرفت بمرض والدته.

تنقل الحديث بيننا، بدأ أولًا بالحديث عن الرواية التي أتممت قراءتها في تلك الليلة بالرغم من أنها تتعدى الثلاثمائة ورقة كما قلت، وكانت مذهلة حقًّا كما قال، تحدثت أنا عن كامل وأمه ورباب، وتحدث هو عن نجيب محفوظ ككاتب له فكر واضح، ارتبط اسمه بالواقعية في مراحلها المختلفة، بدأها بالواقعية التاريخية كما في رواياته الثلاث الأول، ثم اتجه إلى الواقعية الاجتماعية، ثم الواقعية النفسية كما في هذه الرواية.

دهشت من تدفقه في حديثه، تابعت انطلاقه في الكلام بالرغم من أنه لم يكن ينظر لي، كأنه يحدث نفسه، أو يفكر بصوت مرتفع، لم أعلق حتى وصل إلى كلمة: الواقعية النفسية، فسألته متعجبة:

- الواقعية النفسية! ماذا تعني بها؟

قال بأنها الروايات التي تتناول الواقع من خلال وعي البطل، أو هي الرواية التي يجد فيها البطل مبررًا لكل ما يقوم به من أفعال.

ثم تحول الحديث إليَّ، فتوقف فجأة قائلًا:

- لكنك لم تحدثيني عن نفسك.

بدأت أتحدث عن نفسي:

- فريدة، تخرجت في كلية الآداب، قسم علم النفس. والدي يعمل موظفًا، وأمي ربة منزل، ترتيبي الثالث من خمسة أبناء، أخي الأكبر عبد الله، طبيب قلب بالقصر العيني، والثاني عبد الرحمن، طبيب أطفال بمستشفى الدمرداش، وأنا كما قلت لك خريجة كلية آداب القاهرة، وموظفة بمدرسة السلحدار باشا الإعدادية للفتيات، ثم أختي فريال، طالبة بكلية التجارة، ومحمود أخي الأصغر والأخير، طالب في الثانوية العامة هذا العام بمدرسة إسماعيل باشا.

- بسم الله ما شاء الله.. أسرة نموذجية، بارك الله فيكم جميعًا. تحمل الأب حملًا ثقيلًا، ويبدو أنه بذل مجهودًا كبيرًا في تربيتكم حتى تكونوا هكذا.

- فعلًا، تحمل والدنا الكثير، ولا يزال، بارك الله لنا فيه. وأنت؟

– مصطفى.. مصطفى شاكر عبد المولى، خريج كلية التجارة، وأعمل محاسبًا في بنك مصر، أعيش مع والدتي بمفردي بعد وفاة والدي، وزواج أختي الوحيدة (سماح).

تعجبت:

– محاسب، وتقرأ لنجيب محفوظ!

– ما الغريب في هذا؟! القراءة هواية، وليست عملًا، يبقى أن تختار لمن تقرأ. وأنا أقرأ للكثيرين أمثال نجيب محفوظ، وطه حسين، وعلي أحمد باكثير، وتوفيق الحكيم، العقاد، وغيرهم.

– كل هؤلاء!

– رباني والدي مع أختي على القراءة، ثم مات، وكان ميراثه مكتبته الضخمة المليئة بالكتب. كان دائمًا يقول لنا: القراءة حياة أخرى، ربما تكون موازية للحياة التي نعيشها، لكن في عالم آخر، اقرأ الكتاب كأنك تعيش بداخله، تعرَّف على شخوصه كأنهم جيرانك في البيت أو أصدقاؤك في المدرسة أو العمل، تفاعل معهم، فكِّر بدلًا منهم، ضع نفسك مكانهم، وتخيل ماذا كنت ستفعل.

كان دائمًا يؤكد بأن كل منا يعيش رواية كبيرة هو بطلها، هو الشخصية الرئيسة فيها، ومن حوله هم الشخصيات الثانوية.

- أنت متأثر به جدًّا.

- نعم، كان -رحمه الله- أبًا، وأخًا، وصديقًا. فارقنا مبكرًا.

توقف الكلام، فاستأذنته في الانصراف، لقد تأخرتُ، وافق على أن يتكرر اللقاء ثانية.

كان والدك غريبًا، ومدهشًا، يجبرك على التعامل معه بطريقته هو، وبأخلاقه هو، يحاورك في الموضوعات التي يحبها، ويذهب بك إلى الأماكن التي يعرفها، ويحدثك عن التاريخ وغرائب الحياة كأنه الوحيد الذي يعلم ما يحكيه لك، أو يتحدث عنه، الأفكار عنده متتالية، مترابطة، يتفرع بك في الحديث لكن لا يغيب أبدًا عن الموضوع الرئيس، فيرجع إليه في سلاسة وسهولة، لا تشعر باختلاف الموضوعات عن بعضها، يحدثك في الرياضيات، ثم عن محمد بن موسى الخوارزمي، ومنه إلى الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي، ثم يرجع مرة أخرى للرياضيات، دون أن تشعر، وهكذا في كل الموضوعات.

أجبرني -دون أن يطلب- على القراءة في كل شيء خاصة الأدب والتاريخ وعلوم الحياة؛ حتى أسايره في حديثه، أو أن أكون على مستوى تفكيره وأفكاره.

بدأنا نتقابل تقريبًا كل يوم عند انصرافنا من العمل، فكانت محطة ركوبنا الأتوبيس في العودة واحدة، اقترح هو ألا نركب الأتوبيس في ذلك اليوم، وقال:

- تعالي نجلس معًا بضع دقائق.

رفضتُ فقد تأخرت المرة الماضية، وعاتبتني أمي، فاقترح أن نسير معًا في نفس الاتجاه، بمعنى أن يطول الوقت معًا ولو قليلًا، وأمام إصراره وافقت على العرض.

تنقل الحديث بيننا عن أسرتي أولًا وإخوتي وعملهم بالتفصيل، وعمل والدي والأعباء الثقيلة التي يتحملها، ثم حدثته عن نفسي، وعملي في المدرسة، وحكيت له بعض المواقف التي تعرضت لها في حياتي وخاصة مع زميلاتي وزملائي في العمل، وتحدث هو أيضًا عن نشأته هو

وأخته، ووفاة والده فجأة، وتحمل والدته حملهم جميعًا بعد ذلك، ثم زواج أخته، وبقائه هو مع والدته.

عندما يستمع، ينظر في عيني بعينيه العسليتين وابتسامته الساحرة، فيدفعني لاستكمال الحديث دون توقف مني، أو تعليق منه، حتى إنني سألت نفسي متعجبة:

- كيف أتحدث هكذا لشخص لا أعرفه؟! ولماذا أحكي له كل هذه الحكايات؟!

وعندما يتحدث هو يتدفق كنهر هادر، يجري بلا توقف.

كان بيتنا قد اقترب، فاعتذرت له، وطلبت منه أن يتوقف هنا، ويرجع مخافة أن يراه أحد الجيران يسير معي، وفعلًا ودَّعني بأدب وانصرف على أن نتقابل غدًا في موعدنا.

بقينا هكذا نتقابل طيلة شهر كامل، تقريبًا كل يوم، عرف عني كل شيء دون أن أشعر، حكيت له عن أدق تفاصيل حياتي، لا أقول بأنه كان كأخي، فعادة لا تحكي الأخت لأخيها عن كل شيء، لكنه استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يسرق حتى أفكاري، كنت أشعر بأنه يعرف

الكلمة قبل أن أنطق بها، وهو أيضًا تركني أعرف عنه كل شيء، ميوله، عواطفه، ماذا يحب، وماذا يكره، وقال لي بأني أولى تجاربه في الحياة، فلم يعرف فتاة قبلي، وصدقته، فهو كان صادقًا.

فاجأني ذات يوم، بعد صمت وحيرة، بحبه، كان الموقف جديدًا بالنسبة لي، تحيرت ولم أستطع الرد، كأني لم أتعلم الكلام، لم أجد كلمة واحدة أرد بها، فرت مني كل الكلمات، فالتزمت الصمت، وبعدها بأسبوع عرض عليَّ والدك الزواج، كنت فرحة جدًّا؛ من الصعب أن تجد من يشاركك الحياة بنفس الميول والاهتمامات كما قلت، ومن المستحيل أن تجد رجلًا كوالدك، طلبت منه الفرصة للتفكير رغم موافقتي، فابتعد -دون استئذان- أسبوعًا كاملًا مرة أخرى، كنت بحاجة إليه ليشاركني اتخاذ القرار المناسب.

كان والدك في تلك الفترة كل حياتي، كنت أبحث عنه في كل مكان ذهبنا إليه معًا، أنتظره في محطة الأتوبيس طويلًا، وأنا على يقين بأنه لن يأتي، تركني في حيرة، وكأنه أراد لي اتخاذ القرار بمفردي بلا تأثير منه. عرضت الأمر على والدتي وأختي فريال، وحدثتهم عنه وعن كل ما

أعرفه عنه، ونصحاني بالموافقة ما دمت مقتنعة به على أن نتعرف عليه وعلى أسرته أكثر في أثناء فترة الخطبة.

مرَّ أسبوع كامل، ثم هبط فجأة كأنه وحي من السماء، اتجه نحوي بابتسامته الساحرة الجذابة، لم أتمالك نفسي، كنت فرحة جدًّا، أردت الابتسام فضحكت بصوت مرتفع، التفت إليَّ الناس في دهشة، وأشار لي أن أتماسك، فعيون الناس ترقبنا، تمنيت في تلك اللحظة أن يختطفني، يسرقني، ويذهب بي بعيدًا عن عيون كل الناس.

عاتبته على اختفائه هذا الأسبوع، فقال:

- أردت أن تتخذي القرار المناسب دون تأثير مني، فأنت تعرفين عني الكثير، أو تعرفين عني كل شيء الآن، فلا حاجة لي بجانبك.

كان كل يوم في عمر علاقتي به يزيد إعجابي به، أبلغته بموافقتي، فقال مازحًا:

- أعرف ذلك.

- نعم!!! ممن؟!

- من عينيك. ومن قبل أن أعرض عليك الأمر.

ضحكنا، وطلبت منه أن يتقدم رسميًّا لخطبتي. وحددت له موعدًا مع والديَّ وإخوتي، كان يوم خميس، وفعلًا لم يخب ظني فيه، جاء في الموعد، فارسًا كالذي تحلم به أية فتاة، يأخذها على فرسه الأبيض، ويطير بها إلى الفضاء.

كنت فخورة جدًّا به، أو فخورة باختياري ورأيي فيه، يتنقل في كل الموضوعات مع والدي وإخوتي بمهارة شديدة، ولباقة وثقافة يحسد عليها، تحدثوا في كل شيء، وكان له رأي واضح خاص به، يتفق أو يختلف مع بقية الآراء لكنه كان مقتنعًا به، وبمنطقية شديدة كان مقنعًا للآخرين.

ثم بدأ يتحدث عن نفسه، وعمله، ودخله، وإمكانياته، كانت معه والدته وأخته (سماح) وزوجها الأستاذ (إبراهيم)، ثم ترك الحديث لوالدته، التي تحدثت عن الظروف التي مروا بها، وعمل والده (شاكر عبد المولى)، وكيف قادت هي سفينة الأسرة بعد وفاته، ثم تحدث الأستاذ إبراهيم عن نفسه، وعن عمله كمعلم في مدرسة الحديثة، ثم عن مصطفى، الذي لا يعتبره صهره؛ وإنما هو أخوه بالفعل، واجتهاده

في العمل، وهواية القراءة التي يحبها، والكتَّاب الذين يتأثر بهم، وعبد الناصر الذي يعشقه.

كانت أسرتي جميعها موجودة، تسمع الأحاديث، ولا تشارك فيها إلا بالقليل من التعليقات، كان والدي وإخوتي يريدون معرفة كل شيء، فتركوا مصطفى يتحدث بأريحية تامة، لم يقاطعه أحد، حتى عرضت أمه طلبه بالزواج مني على أن نقيم معها في شقتها، فهي -كما قالت- شقة كبيرة، من أربع غرف، وحمامين وصالة كبيرة ومطبخ، ومن المستحيل أن تعيش فيها بمفردها، ويبحث ابنها الوحيد وزوجته عن مكان آخر، أو تتركهما يعيشان بعيدًا عنها.

تحدث والدي، وعبَّر عن تقديره واحترامه للشباب المكافح، ورحَّب بمصطفى، وأثنى عليه، باستثناء حبه لعبد الناصر الذي يختلف معه، وأنه يؤتمن على ابنته، كما رحَّبت به أيضًا أمي وإخوتي، وتم الاتفاق على موعد الخطبة، والزفاف، وكافة التفاصيل، كما وافق الجميع على الإقامة مع والدته في شقتها؛ إرضاء لوالدته من ناحية، وللتخلص من مشكلة البحث عن شقة من ناحية أخرى.

كان والدي محبًّا للملك فاروق، حتى إنه لا يذكره إلا بلقبه "حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق"، ودائمًا يتحدث عن الملكية، وتواضع الملك الذي كان يشرب الشاي في المقهى الشهير (جروبي) بوسط القاهرة، ويلعب البولينج مع الموظفين، كما كان يشارك الناس أفراحهم وأحزانهم، فأحيانًا يتنزه في شوارع منطقة عابدين، ويجد مأتمًا فيشارك فيه معزيًّا، أو عرسًا فيشارك فيه مهنئًا، ولا يترك مناسبة يُذكر فيها الملك فاروق إلا ويذكر بفخر شديد أنه كان يشير بيده إلى والده كلما خرج إلى شرفة من شرفات قصر عابدين، ووجده واقفًا في شرفة بيته القريب من القصر.

مرت الأيام سريعة، خلال شهور قليلة كان كل شيء منتهيًا، وتم العرس وسط المدعوين والمدعوات من أسرتينا وجيراننا وأصدقائنا في العمل.

انتقلت (ماما زينب) والدة مصطفى، وكنت اتفقت معه على أن أناديها بلقب (ماما)، خلال شهر العسل -كما يقولون- للإقامة مع سماح وزوجها الأستاذ إبراهيم، ورفضنا نحن الفكرة في بدايتها، لكنها أصرَّت.

كانت المرة الأولى التي يبتعد فيها مصطفى عن والدته، وتبتعد عنه، لا أحب أن يكون هذا بسببي، أو بسبب زواجي من مصطفى، ابنها الوحيد.

كانت الأيام جميلة، مر الشهر سريعًا، حصلت على أسبوعين إجازة من العمل، وأيضًا مصطفى، كنا معًا في المنزل حتى الرابعة أو الخامسة عصرًا، بعد ذلك ننزل للتنزه على الكورنيش، كوبري قصر النيل، أو نزهة نيلية بالمركب، ونتناول العشاء في الخارج ونرجع في غاية السعادة.

في إحدى المرات فاجأني مصطفى بـ (العزومة) على العشاء في (جروبي)، وعندما أظهرت فرحتي الشديدة، قال مازحًا:

- حتى تعرفي كيف غيرت الثورة في البلد. تتناولين العشاء في نفس المقهى الذي كان يأتيه الملك فاروق.

فاعترضت وأنا أضحك:

- أن يأتي الملك إلى هنا ويجلس بين الناس، فهذه شهادة له كما قال والدي من قبل، وليست عليه.

في إحدى المرات، وفي أثناء العشاء، فجأة توقف مصطفى عن الكلام، والأكل، وقال بتأثر:

- أمي وحشتني جدًّا، المرة الأولى التي أبتعد فيها عنها أسبوعًا كاملًا.

فعرضت عليه أن نذهب لزيارتها في اليوم التالي، فرح بالفكرة، وقال بأنها ستكون مفاجأة جميلة، وعرضت عليه أيضًا أن نأخذ معنا عشاء خاصًّا لنا جميعًا.

فعلًا في اليوم التالي، وبعد النزهة اليومية الجميلة، والتي قضيناها في ذلك اليوم بين الأهرامات وركوب الخيل، أخذنا العشاء من مطعم مشهور بالهرم، كانت ماما زينب تحكي عنه دائمًا في حديثها عن خروجها وتنزهها مع الأستاذ شاكر والد مصطفى، أخذنا العشاء وذهبنا، كانت المفاجأة رائعة فعلًا كما قال مصطفى، فرحت بنا فرحًا شديدًا، ودمعت عيناها، وهي تقول:

- وحشتني جدًّا يا مصطفى، تخيل.. رجعت أعاتب نفسي لأني تركتك وجئت إلى هنا. لم أكن أعرف أني أحبك هكذا. اكتشفت أنني لا أستطيع الحياة بعيدًا عنك. لكن عزائي الوحيد أني مطمئنة عليك مع حبيبتي فريدة.

تناولنا العشاء معًا، وكنا فرحين، نتبادل القفشات والنكات، واكتشفت لأول مرة أن الأسرة كلها خفيفة الدم، كل منهم يرد على الآخر بكلمة لا تترك الآخرين إلا وهم ينفجرون بالضحك.

بدأها الأستاذ إبراهيم قائلًا وهو يضحك:

- عشاء جاهز يا مصطفى! ربنا يبشرك بالخير.

ردت ماما زينب وهي تضحك وتنظر لمصطفى :

- أنا سأبدأ أقلق عليك.

فردَّ مصطفى وهو يبتسم:

- هذا اقتراح فريدة.. العشاء يكون جاهزًا، ومن هذا المطعم بالتحديد لأنك تحبينه.. فالكلام يوجه لها هي.

ردت ماما زينب:

- ربنا يبارك فيك يا حبيبتي.

بعد تناول العشاء، انفردا بي -والدته وأخته- وبدءا يسألاني عن الحياة التي لم يمر منها سوى أسبوع واحد، وسألتني ماما زينب عن مصطفى، وكيف يتعامل معي، هل حدث شيء يغضبني منه؟! وكانت

فعلًا تسأل وكأنها أمي أنا، وتريد أن تطمئن عليَّ، ثم أكدت كلامها قائلة:

– مصطفى طيب.. ابني وأعرفه جيدًا. إن شاء الله ستسعدين معه.

ثم استأذنتْ لعمل الشاي وتركتني مع سماح، التي عرفتها فعلًا بعد الزواج، لم أكن أتخيل أن تكون بهذا الذوق والأدب، لا تشارك في الأحاديث إلا بإذن، ولا تقاطع المتحدث، لا تسأل في تفاصيل الأشياء، أو بالأدق لا تتدخل أساسًا فيما لا يعنيها، كانت بطبيعتها هادئة، بشوشة، مثقفة، لا تتحدث بصوت مرتفع، لا تشعرك بأنها موجودة، فرحت بها كثيرًا، حتى إنني بدأت أحكي وأتكلم معها بمنتهى الحرية والأريحية، دون أن تسأل هي، فقط ابتسامتها الجميلة المدهشة على وجهها البريء تدعوك لأن تكمل الحديث دون توقف، ذكرتني بمصطفى عندما تعرفت عليه.

بدأت تحدثني هي الأخرى عن نفسها، ليس بالتفصيل، وإنما المحطات الرئيسة في حياتها، قالت بأنها أصغر من مصطفى بثلاثة أعوام،

وأنها تخرجت في كلية الآداب قسم الفلسفة قبلي بعامين، وأنها تعرفت على الأستاذ إبراهيم من خلال صديقه ابن الجيران، ورآها مرة أو مرتين على السلم في أثناء الصعود أو الهبوط. وحاول أن يلفت نظرها، أو يستوقفها، دون جدوى، إلى أن تقدم رسميًّا لخطبتها والزواج منها، وأقاما معًا في هذه الشقة التي استأجرها هو بعيدًا عن منزل أسرته كثيرة العدد.

قالت بأن إبراهيم اعترف لها بأنها ليست أولى تجاربه، صُدمت وقتها بهذا الخبر؛ لا تحب أن تكون الثانية في أي شيء خاصة في حياة الرجل الذي سترتبط به بقية حياتها، هكذا قالت، ابتعدتْ عنه أسبوعين كاملين، وكان هو خلالهما يحاول الاتصال بها أو مقابلتها دون جدوى، إلى أن تقابلا مصادفة، كما يبدو لها، أو كما كان مخططًا لهذه المقابلة، كما أخبرها بعد ذلك، في عرس أخي صديقتها، وأنه اعتذر لها، وأخذ يؤكد أنه قد تخلص من كل تجاربه السابقة، وأصبح الآن وكأنه فاقد للذاكرة، أو مولود من جديد على يديها، وعلى يديها سيتعلم المشي، ويتعلم الحب، صدقته، وتزوجا.

جلس مصطفى وإبراهيم بعيدًا عنا، وأخذا يتحدثان طويلًا في أثناء تناول الشاي، وبعد أن ودعناهم ورجعنا إلى المنزل سألت مصطفى فيمَ كانا يتحدثان كل هذا الوقت، قال بأن إبراهيم كان يشكو له ضيق الحال، وقلة الراتب الذي يتقاضاه من المدرسة، وأنه يبحث عن عمل آخر بعد الظهر.. وهكذا.

انقضى الأسبوعان، واتفقنا أنا ومصطفى على عودة والدته إلى المنزل، في البدء رفضت، وأكدت أنها لن تعود إلى المنزل قبل انقضاء الشهر، وأمام إصرارنا وافقت.

رجعت هي إلى المنزل، ورجعنا نحن إلى العمل، كانت زميلاتي فَرِحَات بي، يهنئنني بالزواج، يسألنني عن أدق التفاصيل فيحمر وجهي خجلًا، يمدحن لي مصطفى، وسامته، أناقته، نبل أخلاقه الذي يبدو عليه، فأشعر بالغيرة عليه منهن، وأطالبهن بالسكوت، فينفجرن بالضحك.

كانت حياتنا جميلة ورائعة، بسيطة في كل شيء، ماما زينب تعاملني كابنة، وتؤكد لي دائمًا أنني مثل سماح ابنتها، تقول لي بأنها تحب ابنها جدًّا، لذلك هي تحب كل من يحبه جدًّا، وتوصيني دائمًا به:

- مصطفى.. ليس لي غيره في الدنيا بعد ربنا.
- مصطفى.. سندي في الدنيا بعد وفاة والده.
- مصطفى.. صورة مصغرة من شاكر رحمة الله عليه..
- خدي بالك من مصطفى..
- سعادتي في سعادة مصطفى.

وهكذا.. كانت سيدة جميلة ومثقفة، ومتأثرة كثيرًا بشخصية زوجها المحب للقراءة، فكانت في ثنايا حديثها تستخدم آراء الكتَّاب وتعبيراتهم، أو تتحدث بلغة عربية سليمة خالية من الأخطاء، كأنها تلقي نشرة الأخبار، أو ضيفة في برنامج تليفزيوني، تحافظ على مخارج الحروف، وبنية الجملة، ونطق الكلمات نطقًا صحيحًا أثناء الحديث. تؤمن بدور المرأة في الحياة، وتتحدث عن نساء فضليات أمثال صفية زغلول، وهدى شعراوي، وتقول دائمًا بأن سعادة ابنها في يد زوجته، وتشير إليَّ.

سعادة مصطفى كانت همي الأول والأخير في هذه الحياة، ليس تنفيذًا لوصية والدته، أو والدتي التي كانت توصيني هي الأخرى دائمًا

بالاهتمام بزوجي؛ وإنما حبًّا، بل عشقًا له، فلم أتأخر عنه في أي شيء، مطالبه كانت دائمًا -كما يقال- أوامر سريعة التنفيذ، استطعت الموازنة بين عملي في المدرسة، وعملي في البيت كزوجة مسؤولة عن حياة زوجها وسعادته، وحياة أمه معًا.

كان دائمًا يشركني في كل شيء، ويحدثني في كل أمور حياته، يحكي لي تفاصيل العمل، والمشكلات التي تواجهه سواء من مديريه أو من العملاء، وكنت أحاول جاهدة التخفيف عنه، فأصنع له حياة جديدة بعيدة عن كل هذه المتاعب والهموم، حتى والشخوص التي تملؤها، ليس فيها سوى ثلاثتنا.

كانت ماما زينب تعرف هذا، وتحمده لي، وفي بعض الأحيان توجهني بخبرتها وثقافتها الكبيرة إلى أفكار جديدة بالنسبة لي، وكان هو يحاول جاهدًا تحقيق السعادة لنا -أنا وأمه-. لم أسمع منه كلمة سيئة، أو تجرح مشاعري، كان دائمًا يفاجئني، والمفاجأة نفسها تكون مفاجأة، كلمة غزل من كوكب آخر، أو وردة جميلة وكأنها من الجنة، أو قبلة سريعة خاطفة دون أن تشعر ماما زينب التي تجلس بجانبنا، وأحيانًا

شيئًا من ذهب، خاتم جميل، أو سوار في عيد ميلاد أو عيد زواج، خروجة للفسحة، وكانت والدته تعتذر عنها بلطف، قائلة:

- حتى تكونا على راحتكما.

مر العام الأول من الزواج، نعيمًا وسعادة، كان مصطفى طموحًا، ذكيًّا، حريصًا على التفوق في عمله والترقي فيه، وكنت حريصة على توفير المناخ الذي يحقق له كل ما يسعى إليه.

كانت ماما زينب، تشاركني الأحاديث بود ومحبة، كأنها أمي فعلًا، تحكي لي كثيرًا عن طفولتها، واهتمام أسرتها بتعليمها حتى حصلت على البكالوريا (الثانوية العامة)، وهو ما كانت تطمح إليه الكثير من الأسر في وقتها، وكيف تعرفت على الأستاذ شاكر (والد مصطفى) في عرس صديقتها، وكيف جذبها إليه بوسامته وعينيه العسليتين، مثل عيني مصطفى تمامًا، ثم بأدبه وثقافته.

قالت بأنه كان محبًّا للموسيقا، يعزف لها على العود الخاص به، والذي لا تزال تحتفظ به حتى الآن، أغنية لعبد الوهاب في ليلة صفا، محبًّا للقراءة، فيتحدث في كل الموضوعات، لديه القدرة أن يحكي تاريخ سبعة

آلاف سنة في سبع دقائق، موسوعة فعلًا في كل شيء، وكيف ارتبطت به، حتى أنجبت ولديها مصطفى وسماح، ثم توفي عقب هزيمة 1948 وضياع فلسطين، متأثرًا بالمرض الذي ألمَّ به فجأة، لم يعرف الأطباء علاجه أو سببه أو حتى اسمًا له، وقالوا بأنه مرض نادر جدًّا، لم يستمر طويلًا؛ شهر واحد تقريبًا وتوفي رحمه الله.

كانت تحكي، وتغالب دمعة تجمعت في عينيها، مسحتها مسارقة، واستطردت بأنه كان محبًّا لبلده ووطنه والعروبة بأكملها، يسأل دائمًا متعجبًا:

- كيف هُزمت الجيوش العربية المنظمة والمسلحة، كلها أمام مجموعة عصابات من اليهود؟!

ويتساءل أيضًا في أسى وحزن:

- من الذي تسبب في ضياع فلسطين؟! من الذي باع؟!

كانت تتدفق في حديثها، كأنها تتحدث مع نفسها، وكنت أترك لها الفرصة للفضفضة، لا أقاطعها، فقط الابتسامة، وكأني أشجعها على الاستمرار، وكانت هي تستمتع بهذا، عندما تحكي دون مقاطعة،

باستثناء حديثها عن الحمل والإنجاب، عندما تتوقف فجأة، وتلتفت إليَّ:

- ألا يوجد جديد؟

بابتسامة خجلى حزينة، أهز رأسي بالنفي:

- لم يرد الله بعد.

تمط شفتيها، وتهز برأسها مرات:

- الحَمْل تأخر. عام كامل.

فأوضح لها أن هذا الأمر بيد الله، ثم أنا ومصطفى لسنا متعجلين في هذا الموضوع.

كنت أسأل مصطفى:

- ألا تحب الأطفال؟

- بلى. ومن الذي لا يحب الأطفال؟! الأطفال منح وهبات ربانية، لكني أحبك أنت أكثر من كل الأطفال. يظل الزوج عريسًا وحبيبًا حتى يأتي الطفل الأول، وأنا أريد أن أظل حبيبًا أطول فترة ممكنة قبل أن أصبح أبًا.

كنا نضحك، وتعترض ماما زينب، وتحاول أن تقنعه أن نذهب للطبيب لمعرفة سبب تأخر الحمل، وكنت أنا أطمئنه بأنه سيظل زوجًا وحبيبًا لي طوال العمر، حتى لو أنجبت عشرة أبناء.

ذهبنا أنا وأمه للطبيب، وطمأننا بأنها عملية وقت لا أكثر، فنحن لا نزال في العام الأول من الزواج، ونصحنا بعدم التعجل.

كان مصطفى متيمًا بعبد الناصر، لا حديث له سوى عبد الناصر والثورة، حتى أعلن تأميم القناة بعد زواجنا بعام، وعمت الأفراح في كل مكان، كان مصطفى يتباهى به، وبحبه وبتأييده له، ويقول دائمًا بفخر بأن عبد الناصر لم يخِب ظنه فيه. وها هي الثورة بدأت تجني ثمارها، بعد مجانية التعليم التي عممتها الثورة لتشمل مراحل التعليم المختلفة حتى التعليم الجامعي، إصدار قانون الإصلاح الزراعي والقضاء على نظام الإقطاع، وبدأ الفلاحون يتملكون الأراضي، ها هو التأميم، وبعد قليل سيكون مشروع العمر؛ السد العالي بتمويل مصري.

مرت أيام قليلة، وإذا بمصر الثورة في التاسع والعشرين من أكتوبر عام 1956، تصاب بالعدوان الثلاثي، ثلاث دول؛ فرنسا وإنجلترا،

ومعهم ذيل الكلب (إسرائيل) يقومون بالهجوم على مصر، في محاولة منهم لإخضاعها والسيطرة على قناة السويس من جديد.

مرت الأيام صعبة، وأسرع مصطفى إلى بور سعيد للدفاع عنها مع قوات المقاومة الشعبية هناك، كنا خائفين عليه، ليس لنا غيره بعد الله، وكانت ماما زينب حائرة بين إقناعه بالبقاء في القاهرة خوفًا عليه، أو تأييده فيما ذهب إليه، حتى إنها قالت:

- أنت وما تريد. لن أطلب منك البقاء معنا، لكن سأدعو الله أن ترجع لنا سالمًا ومنتصرًا إن شاء الله.

وعندما نظر إليَّ راجيًا الموافقة على الذهاب، لم أتمالك نفسي، وارتميت بين ذراعيه وأنا أبكي، وفي نفس الوقت أدعو الله له بالتوفيق، وأن يرجع إلينا سالمًا، مرفوع الرأس، منتصرًا إن شاء الله. وودعناه وانصرف.

توقفت الحياة في مصر بأكملها، وليست في مدن القناة فقط كما يقولون:

- لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

كنا نتابع الأخبار من الإذاعة والجرائد، هجوم إسرائيل على سيناء وتحرك الجيش المصري لصد العدوان، ثم تدخل إنجلترا وفرنسا بسلاح الطيران حتى وصلوا إلى الدلتا والقاهرة.

كانت مؤامرة محبوكة، أوشكت أن تودي بالجيش عن بكرة أبيه في سيناء، حتى أمر عبد الناصر بالانسحاب والتراجع حتى غرب القناة.

زاد قلقنا وخوفنا على مصطفى، وكانت ماما زينب وحيدة في غرفتها معظم الوقت ما بين الصلاة والبكاء، تدعو الله أن يحفظه ويرجع سالمًا، وتعاتب نفسها -في نفس الوقت- أنها تهاونت في إقناعه بالبقاء معنا.

كنت أحاول قدر استطاعتي التخفيف عنها، وأؤكد لها بأن الله معه ومعنا، وأنصحها بأن تترفق بنفسها، فعين الصواب هو ما فعلته، فمن الذي يدافع عن مصر في هذا الوقت إن لم يدافع عنها أبناؤها؟! ومصطفى واحد منهم.

خطابات عبد الناصر كانت رنانة، تلهب الحماس، وكان الناس يحفظونها عن ظهر قلب، ويرددون عباراتها الشهيرة في المواصلات وعلى المقاهي، خاصة خطابه الأول في الأزهر، مثل:

- مصر مقبرة الغزاة.

- عدوان الظلم والاستعمار.

- يجب أن نموت بشرف. يجب أن نموت بكرامة.

- والعبارة الأشهر "سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل".

تطورت الأحداث بعد ذلك، وتدخلت القوى الكبرى بقيادة الشيطان الأكبر؛ الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، وأجبرا إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب، وطبقت القرارات، وعادت سيناء ومدن القناة إلى مصر، وعاد مصطفى إلينا بطلًا منتصرًا، وقد أصرَّ ألا يرجع إلا بعد إنزال علم إنجلترا من على مبنى هيئة قناة السويس ببور سعيد.

كانت مصر كلها سعيدة بهذا الانتصار، وزاد الناس التفافًا حول عبد الناصر، فقد أصبح في نظرهم، أو نظر الكثير منهم زعيمًا، وبطلًا شعبيًّا، وزاد حب مصطفى له، حتى إنه بدأ يسأل باهتمام للمرة الأولى عن الحمل أملًا في إنجاب ولد ليسميه على اسم حبيبه (جمال).

جاء والدي وإخوتي وأمي يهنئون مصطفى بسلامة العودة، وحضرت أخته سماح، وزوجها الأستاذ إبراهيم، أشبه بالاحتفالية بالبطل المنتصر، عبارات التهاني تتردد على ألسنة الجميع، مرة بالنصر، ومرة بالعودة سالمًا، الإعجاب الشديد بشجاعة مصطفى وإصراراه على الذهاب إلى بور سعيد، كان الجميع فَرِحًا، وكان مصطفى أكثرهم فَرَحًا، يتدفق حديثه حارًّا عن بطولات المصريين في بور سعيد وأسرهم للجنود والضباط الإنجليز أو الفرنسيين، أو قتالهم بالبنادق و بالسلاح الأبيض، مقاومة الدبابات الإنجليزية في الشوارع بالصواريخ، ويذكر بفرح قصة الطفلين الصغيرين اللذين استخدمهما رجال المقاومة كطُعم لصيد الجنود الإنجليز والفرنسيين، وأيضًا المرأة العجوز التي كانت تستعطف الجنود لمساعدتها في الوصول إلى البيت، وهناك تكشف عن حقيقتها كرجل من رجال المقاومة الباسلة ومن ثم يقوم بقتلهم أو بأسرهم.

كان يتحدث عن ملحمة بمعنى الكلمة سطَّرها المصريون جميعًا في بور سعيد، وتعاطف معها العالم؛ فتدخل لوقف العدوان.

لم يقاطع والدي مصطفى أثناء حديثه، وانتظر حتى أتمه، وبدأ يعبر عن وجهة نظره بأن عبد الناصر أخطأ بتأميم القناة الآن، وأنه ركب دماغه، وأقدم على هذا التأميم عنادًا في الولايات المتحدة والدول الكبرى التي رفضت تمويل السد، وكان الأفضل الانتظار حتى استلام القناة في موعدها 1968، بدلًا من حالة الحرب التي تسبب فيها، والخسائر الجمة سواء في الأرواح أو في المعدات العسكرية، والطيران الذي دمر وهو رابض مكانه في المطارات، بالإضافة إلى تدمير مدن بأكملها مثل بور سعيد نفسها التي يفخر مصطفى بانتصارها. وتساءل:

- ماذا يعني النصر بعد كل هذه الخسائر؟! وكيف ستكون الخسارة إذا كان هذا هو النصر؟!

حافظ مصطفى على هدوئه، وقال مبتسمًا:

- ستظل هكذا يا عمي متحاملًا على عبد الناصر والضباط الأحرار لأنهم أسقطوا الملكية التي تحبها.

ابتسم والدي هو الآخر، وقال:

– ليس تحاملًا؛ وإنما هي وجهات نظر، ليس إلا.. على العموم يكفيني أن فريدة تحبك وتدافع عنك أمامي، وعليك أن تحبها كحبك لعبد الناصر.

ضحكنا جميعًا، وقال مصطفى وهو ينظر إليَّ بحب:

– من هذه الناحية، اطمئن، ففريدة عندي بالضباط الأحرار كلهم.

عاد مصطفى في الأيام التالية إلى العمل مرة أخرى بعد أن عادت الحياة إلى ما كانت عليه قبل العدوان، احتفل به أصدقاؤه في العمل ومديروه احتفالًا كبيرًا، وهنؤوه على العودة سالمًا. كانت مواصلاتنا واحدة، فنذهب معًا، ونعود معًا، في إحدى المرات، وبعد تردد، عرضت عليه الذهاب معي للطبيب للاستفسار عن تأخر الحمل، في البدء رفض، وأمام إصراري قبل حتى يريحني، هكذا قال.

طمأننا الطبيب مرة أخرى بالرغم من مرور عامين على الزواج، وأنه لا داعي للتعجل، وأن هذا الأمر بيد الله، وفي أثناء عودتنا إلى المنزل اشترينا طعام الغداء من الخارج لنا جميعًا، وطمأنَّا ماما زينب التي سألتنا في لهفة:

- إيه الأخبار؟ لعله خير هذه المرة.

لم أجب ونظرت إلى مصطفى، فقال (وهو يضحك):

- هذه المرة.. مثل كل مرة.. الأمر بيد الله.

- كل شيء بأمر الله، لكن لماذا؟

- مسألة وقت كما يؤكد الطبيب، وقتما يريد الله سيتحقق الحمل، لا تشغلي نفسك.

❋ ❋ ❋

(2)

كنا صغارًا، نتجمع حول المدفأة، أو أمام التلفاز، نسأل بعفوية وبراءة عن أشياء بعينها، مثل: أين الله؟ فتجيب أمي سريعًا بإجابات قاطعة للشك:

- الله موجود في السماء، لكنه معنا بعلمه.

ثم نسأل: ما هو الموت؟ وهل فعلًا سنبعث من جديد بعد الموت؟ هل سنعيش مرة أخرى كما يحكي لنا المعلمون في المدرسة؟ الصراط، ما هو؟ يقولون لنا بأنه أدق من شعرة الرأس، وأحد من حد السيف، كيف سنعبره؟ ثم ننظر إلى أبوينا برجاء وتوسل:

- هل سنكون معًا؟

كان والدي يرد على مثل هذه الأسئلة، بإجابات تشعر فيها بشيء من الحكمة والرزانة، مثلًا يردد وهو ينظر للبعيد:

- الموت.. هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة.

- الموت.. هو بوابة الحياة الآخرة.

- نحن الأحياء الأموات، وهم الأموات الأحياء.

ولم نكن نفهم شيئًا، يزداد الأمر غموضًا حتى ننسى، لكن عندما توفيت (أبلة سعاد) جارتنا، حزنت عليها حزنًا شديدًا، وعندما سألنا عنها والدتي قالت:

- صعدت عند ربنا.. في السماء.

- من يموت يصعد عند ربنا؟! أريد أن أموت.

- (بفزع) بعد الشر عليك.. لا تقولي هذا ثانية.

كان والدي موظفًا بسيطًا في مصلحة حكومية، مثالًا للموظف الحكومي الروتيني، الاستيقاظ مبكرًا مع الفجر، الذهاب إلى المخبز القريب وشراء الخبز والجرائد، والمرور على بائع الفول والطعمية الموجود على ناصية الشارع، وعندما يرجع يجد أمي في انتظاره تقوم بإعداد الإفطار، ونكون قد استيقظنا جميعًا، نتناول الإفطار معًا، ثم يذهب هو إلى العمل، بعد أن يترك لكل واحد منا مصروفه اليومي، الله وحده يعلم من أين يأتي به.

هذا كان عمله اليومي حتى في أيام الجمعة، لا يختلف شيئًا إلا في تناول الإفطار نفسه؛ كان يتأخر حتى استيقاظنا قبيل الجمعة. يؤدي الصلوات في المسجد، ولا يسهر ليلًا باستثناء حفلات أم كلثوم التي يعشقها، النوم مبكرًا بعد صلاة العشاء ومشاهدة المسلسل اليومي ونشرة الأخبار وقراءة الجرائد مرة أخرى.

لم يكن غنيًّا، ولم يكن فقيرًا في نفس الوقت، وكان دائمًا يؤكد على أن الغنى ليس فقط في المال، وماذا يفيد المال مع إنسان فقير الأخلاق أو العلم؟! فالغنى غنى النفس من الأدب والعلم والثقافة وحسن الخلق. وبالرغم من حاجتنا للمال كأسرة كثيرة العدد وأفرادها جميعهم في المراحل التعليمية المختلفة؛ لم يكن هو كتلك النماذج التي كانت تملأ صورها الصحف في وقتها، مرتشية، أو خائنة لذمتها ووطنها، أو غيره، لا أقول هذا لأنه والدي؛ وإنما هي الحقيقة، ولا شيء غيرها.

كثيرًا ما يذكر لوالدتي أنه رفض مبلغًا من المال، أو شيئًا من ذهب لها أو لواحدة منا أنا وفريال، كان كل هذا على سبيل الرشوة، وكانت هي

تشجعه وتصبره، وتؤكد له دائمًا أن الله سيبارك له في أولاده، وها نحن والحمد لله كبرنا، وتعلمنا والتحقنا بالجامعات.

بذل مجهودًا كبيرًا في تربيتنا، خمسة أبناء عبء كبير، وحمل ثقيل على أي أب، حتى لو كان غنيًّا، لكن تربية الأبناء بالنسبة لوالدي ليست حملًا؛ بل رسالة يؤديها بمنتهى السعادة والأمانة، ويجد المكافأة في النجاح الذي يحققه أحدنا سواء كان في الدراسة أو في العمل، لم يشكُ مرة، ولم يتألم، حتى آخر يوم في حياته.

كل منا كان يحاول التخفيف عنه أعباء الحياة، سواء بالعمل، أو بالتوفير في المصاريف، عبد الله وعبد الرحمن كانا يعملان في أثناء الدراسة أو في الإجازات الصيفية لتوفير نفقات الدراسة والكتب التي يحتاجونها، وأنا وفريال نستغني عن الكثير من متطلباتنا كفتيات، ونكتفي بما هو موجود، ومحمود يجتهد في المذاكرة قدر استطاعته، ووالدتي قدر استطاعتها هي الأخرى توفر في نفقات البيت.

الدكتور عبد الله بطبيعته شخصية جادة، وخجول في نفس الوقت، لا يتحدث كثيرًا، ولا يضيع وقتًا، يبحث دائمًا عن التفوق، يضع لنفسه

أهدافًا، ثم يبحث عن دوافع، ربما تكون تافهة، لا قيمة لها في نظر البعض، لكنه يجعل منها دوافع عظيمة، ثم يبدأ في التخطيط من أجل تحقيق الحلم الذي يسعى إليه.

كان من أهدافه مثلًا الحصول على الترتيب الأول على الجمهورية في البكالوريا أو الثانوية العامة، وهو ما يضمن له الالتحاق مجانًا بكلية الطب، وفعلًا حدثنا قبل بداية الدراسة عن هذا الحلم، واستبعدنا نحن -إخوته ووالداه- تحقيقه، بل وسخرنا منه، فصمَّم عليه، وثبَّت على باب غرفته لافتة صغيرة كاللافتات التي توضع على أبواب العيادات الخاصة، مكتوب عليها بخط واضح: "الدكتور عبد الله صبري عبد الغفار. أخصائي أمراض القلب "، ومر العام الدراسي، كان تركيز عبد الله شديدًا وجده واجتهاده في المذاكرة واضحًا للجميع، دعوات والديَّ لا تتوقف، إعجابنا به وبإصراره على تحقيق حلمه يزيد يومًا بعد يوم، وبدأ العد التنازلي للامتحان، ثم النتيجة، وفعلًا كانت فرحة والدي شديدة عندما سمع اسم: عبد الله صبري عبد الغفار أول

الجمهورية، كنا جميعًا في غاية الفرح، لكن كان أكثرنا فرحًا عبد الله نفسه الذي حقق حلمين في وقت واحد؛ الأول على الجمهورية كما قال، والانتساب إلى كلية الطب مجانًا كما كان يحلم.

تزوج الدكتور عبد الله من زميلته في الجامعة ثم في المستشفى الدكتورة عفاف، كانت جميلة، ومهذبة، ربطتهما قصة حب طويلة منذ الدراسة، كان دائمًا يحكي لي عنها، البداية مع محاضرات التشريح، عندما دخلا المشرحة، وكادت تختنق برائحة (الفورمالين) ومنظر الموتى، وأوشكت أن تفقد وعيها، فأسندها بسرعة، حتى تمالكت نفسها وشكرته ثم استأذنت وخرجت.

لم ينتبه إليها قبل ذلك، كأنها لم تكن موجودة، أو لم يرها من قبل -هكذا قال لي- لكن بعد هذا الموقف، وكلمة شكرًا، بدأ يراها كثيرًا، لكن بدون كلمة واحدة، حتى جاءته هي في إحدى المرات وشكرته ثانية، وعرضت عليه المساعدة إن أراد، وتعجب هو في وقتها:

- ما المساعدة التي سيريدها؟! وما المساعدة التي في إمكانها تقديمها له؟!

كان الدكتور عبد الله لا يؤمن بكلمة "الحب"، ولا يعترف بها، ويراها بديلة لكلمات أخرى مثل "العطف"، "الشفقة"، "الرحمة"، وغيرها، إلى أن حدث هذا الموقف في المشرحة مع الدكتورة عفاف، فقال عبارته الشهيرة التي يكررها دائمًا وهو ينظر في عينيها:

- من رحم المآسي يولد الأمل، وعلى جثث الموتى يولد الحب.

ولد حب الدكتور عبد الله في بدايته صامتًا، لم يستطع التعبير عنه، يكتفي فقط بالنظرات، كان يرجع من الجامعة حائرًا، شارد الذهن معظم الوقت، يريد أن يتحدث إلينا -أنا وفريال- في غرفتنا، ثم يخرج دون أن يتحدث بكلمة واحدة، حتى جاءني في إحدى المرات وكنت بمفردي في الحجرة، وقال:

- فريدة.. ما رأيك في هذا الكلام؟!

وناولني ورقة مطوية، فتحتها، وبدأت أقرأ:

"عندما تتراءى أمام عيني وتذوب الكلمات فوق الشفاه، كأنها تأوهات مريض يعاني سكرات الموت، وتخرج همسات القلب ممتزجة بالتنهيدة الطويلة المحملة بالأشواق من الأعماق.

عندما تتلاقى عينانا، حائرتين كالعادة، لا أدري ماذا يريدان من نظراتهما، كأنهما يبحثان عن خريطة علاجية لما هما فيه، أيوجد شيء بينهما؟! لا أدري، ربما ذلك.

يحاول اللسان جاهدًا أن يكون له دور في اللقاء، وتشخيص حالتي المستعصية تشخيصًا صحيحًا، لكن الشفاه تتغلب عليه بالصمت، ليبقى الدور الرئيس للعيون أو نظراتهما، لتوضيح ما لم يستطع اللسان توضيحه.

أما القلب، فها هو قادم من بعيد، يرتدي البالطو الأبيض، قائد، كبير أطباء، علامات الثقة ترتسم على الجبين، الوحيد الذي بيده الأمل في الشفاء، الابتسامة تسيطر على الشفاه، الأمل يحدوه، يسير بخطى ثابتة، يبدو أنه استطاع عمل شيء مهم، لم يستطع اللسان، أو العيون أو نظراتها، عمله. ما هذه الثقة يا قلب؟

لقد استطاع القلب أن يضع يده على الجرح المؤلم، استطاع أن يكون له اللقاء الأول مع قلبها محاورًا إياه. لقد استطاع أن يفك الشيء المبهم

الذي يرسمه الصمت على الشفاه، لقد استطاع أن تكون نظراته أكثر حدة وعمقًا من نظرات العيون.

عندما تتراءى أمام عيني، ويتمايل قدها كالغصن، وها هو الوجه، قد وضح عليه إشراقة القمر في تمامه.

عندما تتراءى، وها هي العيون تلمع لمع النجوم والكواكب في صفحة السماء.

إنها ليست مرآة الحب؛ بل هي الحقيقة التي لا يمكن أن تصطدم في نهايتها بالوهم أو الخيال. إنها الحب".

أعجبت جدًّا بالكلمات وقتها، وقلت:

- الكلمات رائعة يا دكتور، لكن الأروع كل هذه المشاعر التي بداخلك، لكن لماذا حبيسة؟! حاول أن تعبر عنها صراحة. اختلق فرصة للحوار وعبر عن مشاعرك.

كان الدكتور عبد الله يعرف الفرق الكبير بينه وبينها؛ فيخشى مواجهتها ومصارحتها بحبه، ولم يكتف بما هو موجود من الفروق؛ بل

أخذ يضيف المزيد من الصعوبات، وكأنه يريد أن يقطع على قلبه الطريق، لكن كيف؟!

مرت الأيام وإذ به يأتيني بورقة أخرى مطوية كسابقتها، طالبًا رأيي فيها أيضًا، تناولتها سريعًا فرحة بها، لقد أصبح في بيتنا -كما يقال- رومانسي، فقرأت:

"لقد صلت وجلت باحثًا في حقيبتي الطبية، قلبي الصغير العامر بحبك، عن دواء شاف، أو حتى على الأقل مسكنات، كلمات أداوي بها جروحي، أخفف بها آلامي، كلمات يمكن أن تكون الطريق إلى قلبك، كلمات أعبر بها عما يدور في خواطري، عما يدور في جوارحي، فلم أجد سوى كلمتين فقط ، نعم هما اللتان تدوران في خاطرك، لذلك لن أفصح عنهما إلا في نهاية الحديث.

حبيبتي لا عليك، فدعي هذا جانبًا، فيجب ألا نتحدث إلا عن شيء واحد فقط؛ ألا وهو الحب، نعم الحب، الحب الذي سار بي إلى قلب لم أعرف عنه شيئًا، لكن القلب حدثني عنه، بما فيه، فالطريق بينهما واضح وصريح، لا مجال فيه للشك أو الفتور، ألا وهو الهمس الذي لا يمكن

أن يسمعه غيرهما، ولا يمكن أن تعبر عنه كلمات اللسان أو نظرات العيون.

حبيبتي، ها هو القلب جاء قادمًا من بعيد، تسيطر عليه علامات الثقة الممتزجة بالشجاعة، راضيًا أن يكون تعبيره عن حبه أمام الملأ من الجوارح، فهو السبب فيه، لا العين، أو اللسان، أو النفس، أو كلهم مجتمعين، وأوجز القلب تعبيره عن حبه في كلمتين فقط، نعم هما اللتان تدوران في خاطرك، ولا يوجد سواهما في أعماقي، هما: "إني أحبك".

– الله عليك يا دكتووووور.. ما كل هذا الجمال؟!

– ما رأيك؟

– أبعد هذا تسألني عن رأيي يا دكتور؟!

– طبعًا.

– تسألني عن رأيي في ماذا؟! فيما تكتب أم فيما تفعل؟!

– الاثنين.

– ما تكتبه رائع كما قلت لك. أما عما تفعل (وأنا أضحك) يستحسن ألا تحدثها.

- (بدهشة) نعم!!!

- (وأنا أضحك) حتى تكتب مثل هذه الروائع وأقرأها.

بدأت أذهب أنا بعد ذلك لعبد الله في غرفته، ولم تكن من عادتنا -أنا وفريال- وأسأله عن كتاباته الجديدة، فابتسم في إحدى المرات قائلًا:

- فريدة.. أصبحت أراك في غرفتنا كثيرًا.

- (بتعجب) وما العيب في هذا؟! فهي غرفة أخي الحبيب الدكتور عبد الله، وستراني هنا كثيرًا وربما دائمًا يا سيادة الدكتور.

- (وهو لا يزال مبتسمًا) فريدة.. أنا أكتب لحبيبتي عفاف ليس لك.

- وهل تعرف حبيبتك عفاف عن هذا الحب شيئًا؟

- سيأتي اليوم -إن شاء الله- الذي تعرف فيه كل شيء، وتقرأ فيه كل ما أكتبه من أجلها.

- (وأنا أضحك) اعتبر نفسك تكتب لي إلى أن يأتي هذا اليوم الذي تقرأ فيه عفاف ما كتبته وتكتبه وستكتبه.

وتناولت ورقة من وسط كتاب، وقرأتها، وهو يراقب تعبيرات وجهي:

"لقد نفد بحر الكلمات الذي لم يستطع مجاراة بحر الإحساس الدفين المليء بالحب والحنان.

لقد نفد بحر الكلمات، في حين ظل الإحساس شامخًا كالجبل، يتغير الزمان بالناس وهو ثابت لا يتغير.

أيها الحب الماثل أمامي، ماذا بك؟! ما الذي أتى بك إلى خاطري؟! ربما الحب!! ربما!! لكن ماذا نحن بيدنا نملك حتى نقول الحب، الكلمات التي كانت ملك للجميع بحرها نفد، ما هي إذن الوسيلة للتعبير عما يدور في خواطري؟ العيون؟! تقصد نظراتها؟! نعم هي الوسيلة الوحيدة الباقية لخوض المشوار.

أيها الحب، أتسمع صريف القلم عندما يكتب "إني أحبك"؟

أيها الحب، أتسمع نبض القلب كأجراس الكنائس تنبض حروف اسمك ممتزجة بحروف "إني أحبك"؟

أيها الحب، أتسمع كلمات الثناء عليَّ من النفس والسبب فيها "إني أحبك"؟

أيها الحب، حاولت أن تكون عيني مغضوضة البصر فلم أستطع؛ وجدتك متعلقًا في رموشي، جالسًا بين جفني، والسبب "إني أحبك"".

نظرت لعبد الله:

- محظوظة عفاف بكل هذا الحب.

- لكنه حظ أعرج.. كسيح. ماذا يفيد مع شخص مثلي لا يستطيع حتى التعبير عن مشاعره؟! المستقبل معها ليس لي. هي في انتظار العريس الجاهز، لا يزال أمامي الطريق طويلًا.

- هون عليك يا دكتور، صارحها بحبك، ثم دع الملك للمالك.

كان عبد الله يكتب كثيرًا، تقريبًا كل يوم، ثم بدأ في قراءة الروايات، فلمحت معه في إحدى المرات رواية الكاتب محمد عبد الحليم عبد الله "شجرة اللبلاب"، فمازحته قائلة:

- ما هذا يا دكتور؟! ما علاقة هذه المراجع بأمراض القلب والأوعية الدموية؟!

فضحك بصوت مرتفع، وهو يقول:

- كيف؟! هذا هو سبب أوجاع القلب كلها.

كانت الأمور بالنسبة له غاية في الصعوبة، طموحاته شديدة السرعة، فهو يحلم بالتخرج والتخصص الدقيق الممتاز، والماجستير والدكتوراة، والعيادة الخاصة والسيارة والشقة، والزوجة، وكانت الحياة عرجاء، بمعنى أنها لا تسعفه لتحقيق كل هذه الطموحات، فهو يعرف ظروف والدنا، وعمله، وكيف يوفر لنا مصاريف اليوم والحياة، فلم يطلب منه شيئًا، حتى في أثناء الدراسة بالجامعة كان يذهب للعمل في عيادة خاصة لأحد الأطباء المشهورين، وعندما يسأله والدنا يقول له بأنه يتدرب على العمل، ولم يخبره بأنه يعمل ليشتري كتبًا أو ينفق على نفسه، أو غيره، لكنه لم ييأس من تحقيق طموحاته؛ بل ويراها قريبة جدًّا.

كان عبدالله ودودًا، عطوفا دائمًا علينا -أنا وفريال-، كنا نرى فيه صورة مصغرة من والدي في رقته ورحمته بنا، دائمًا يفاجئنا ونحن ما زلنا بناتًا في حجرتنا الخاصة، يمازحنا، ويضحك معنا، ويتفقدنا سريعًا، ويعرف عنا كل شيء دون أن نشعر، ويعطينا شيئًا من نقود ويقول:

- اشتريا ما تحتاجانه.

وينصرف بعد أن يشيع في الحجرة جوًّا من البهجة والمرح.

بدأت الدكتورة عفاف تأخذ اهتمامه في أثناء الدراسة، يتفقدها، يسأل عنها زميلاتها إذا غابت، وعندما يرجع، يكتب عنها، وبعد فترة ليست قليلة، إذ به يعطيني دفترًا وعليه بخط جميل منمق عريض العنوان "خواطر قلب موجوع"، طالبًا رأيي فيه، وضع فيه كل ما كتبه عنها، وصدَّره بمجموعة أبيات من الشعر من تأليفه:

إنِّي كتبت من الأشعار أبياتًا ولقد ملأت بمعناها الدواوينا
فيها أعبِّر عن إحساس فرحتنا وجوى كان في المعنى حزينا
ناديت طيفك والنجوم بغرفتي سمع النداء فهلَّا تسمعينا
يا من تشبَّع بالصفاء فؤادُها أشكو الغرام وأطمع أن تجيبينا
تغدو الحياة بمفردي ممقوتةً ألقي لحاظا للهوى وعيونا
إن كان شعري لم يزل في محبسي فلمن سواك أقدم الدواوينا؟!

كنت أشجعه دائمًا على التعبير عن حبه الذي كاد يودي به، فيؤكد لي كل يوم أنه سيكلمها في اليوم التالي ويعترف لها بحبه، وعندما يرجع من الكلية في اليوم التالي، وأسأله:

- هل قابلت عفاف اليوم؟

- نعم.

- حدثتَها؟

- نعم.

- (بفرح شديد) والله.. جميل جدًّا، واعترفتَ لها بحبك؟

- لا.. لم تأتِ الفرصة، كان الحديث عن المحاضرات والكلية والأبحاث المطلوبة.

- وهي.. ألم تقل لك شيئًا؟

- (بتنهيدة طويلة) بلى، قالت كل شيء، وأجابت عن كل الأسئلة التي سألتُها.

لقد أصبح الأمر بالنسبة لعبد الله معقدًا، حبُّه عنيف، لكنه للأسف اصطدم بالصمت القاتل، لقد نحل جسمه نحولًا شديدًا، حتى إنني ظننت أنه كثير الصيام، وعندما سألته، أكد لي أنه لا يصوم هذه الأيام، وتعجب لأن أحد أصدقائه سأله نفس السؤال.

ترددت على عبد الله في كليته أكثر من مرة، كنت ما زلت طالبة في الثانوية العامة، وكان هو بهذه الزيارات يشجعني على المذاكرة، لعلي أكون مثله، وألتحق بكلية الطب، لكن عقدتي مع الرياضيات والفيزياء

من ناحية، ومنظر الدماء في الكلية ورائحة المعامل من ناحية أخرى كانت سدًّا منيعًا أمام تحقيق الأمل.

في المرة الأولى، من بعيد أشار إلى عفاف، وقال:

- هذه ملهمتي.. عفاف.

قلت:

- تستحق ما تكتبه عنها وأكثر.

لمحتنا فاتجهت نحونا، سألته عني، فعرَّفها بي، رحبت بي وسألتني عن مذاكرتي في الثانوية العامة، وأمنياتي، هل أريد أن أصبح طبيبة مثل أخي الدكتور عبد الله؟ كانت شديدة التواضع، تتحدث بتلقائية وعفوية شديدة، لا تشعرك بالفوارق، أو إنها من طبقة عليا كما يبدو عليها، تحدثت في موضوعات كثيرة في وقت واحد، كانت تتحدث وتسأل وتترك لك فرصة الإجابة والتعبير عن أي شيء، وكأنها تريد أن تعرف كل شيء.

قابلتها بعد ذلك مرة أو مرتين، توطدت علاقتي بها، كانت تعاملني كأنني أختها الصغرى، لا تبخل عليَّ بنصائحها، تسأل عن أسرتي، وعن

عبد الله، هواياته، ماذا يحب؟ وماذا يكره؟ وأخبرتها بأنه يقرأ روايات ويكتب خواطر وأحيانًا ينظم شعرًا، فرحت فرحًا شديدًا، وتساءلت غير مصدقة:

- عبد الله؟!!!

وفي أول مرة ذهبت فيها للجامعة، دون أن أخبر الدكتور عبد الله أخذت دفتره (خواطر قلب موجوع) وأعطيتها إياه، ولم أقل شيئًا، كنت أريد أن تقرأ هي أولًا، وأنتظر مثل نبي الله سليمان (عليه السلام) مع بلقيس ملكة سبأ، "أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون"، هل ستعرف نفسها في سطوره أم لا؟

تناولته غير مصدقة، كانت فرحة جدًّا، تسأل في دهشة:

- متى كتب عبد الله كل هذا؟

بحث الدكتور عبد الله عن دفتره بعد ذلك في البيت ولم يجده، وتظاهرت بأني لا أعلم عنه شيئًا، وبعد يومين عاد إلى المنزل ومعه الدفتر غاضبًا مني، وعنفني تعنيفًا شديدًا؛ لأني تصرفت دون علم منه، اعتذرت له، وأكدت له أني أحبه جدًّا، وكنت حزينة من أجله، وسألته

كيف وصل الدفتر له؟ فقال بأنه وجد عفاف على غير عادتها تبتسم ابتسامة واسعة، وتلقي عليه السلام، مادة يدها بالدفتر قائلة:

- كتاباتك رائعة يا دكتور.

- (بتعجب) كيف وصل لك؟

حكت له، ثم، وهي تنصرف:

- كأنك تتحدث عني. كأني هي.

كانا يقضيان معًا بعض الوقت في الحديث عن المحاضرات والأساتذة، وشراء الكتب والمراجع، وبعد هذا الموقف، حدَّثها الدكتور عبد الله عن نفسه وأسرتنا، قالت له بأنها تعرف كل شيء من نظرات عينيه، فمثله تفضحه عيونه، وحكت له عن نفسها، وأنها أولى الأبناء لأسرتها الصغيرة التي تحملت مصاريف دراستها في الطب، وأن والدها هو الطبيب المعروف أنس الجوادي، لكنها لا تتحدث عنه، ولا تريد أن يعرف أحد هذا، وأكدت له مرارًا أنها تريد الاستقلال بحياتها بعيدًا عن والدها، فزاد إعجاب عبد الله بها.

كان الدكتور عبد الله يتحدث عنها كثيرًا، تدينها، تواضعها الشديد، جمالها، أخلاقها المهذبة، ثقافتها الواسعة، حبها للحياة، التفاؤل الدائم

التي كانت دائمًا تزرعه في قلوب المرضى، مساعدتها للمحتاجين منهم، أحس أنهما متفقان في كثير من الأمور؛ فنما بينهما الحب الطاهر ذو البالطو الأبيض كما يقولون، أشبه بحب القديسين والنبلاء.

كان الحب هو دافع الدكتور عبد الله الجديد لتحقيق كل ما يتمنى، تفوق في الجامعة وحصل على البكالوريوس، والامتياز، وعندما اختار تخصص أمراض القلب للعمل به، احتضن لافتته المحبوبة التي كانت مثبتة على باب غرفته في أثناء الثانوية العامة، وهو يقول بأنها حلمه الجميل وقد كبر، ثم تسلَّم عمله في مستشفى قصر العيني، ثم حصل على الماجستير سريعًا، والدكتوراة، كل هذا خلال خمسة أعوام أخرى بعد تخرجه.

وعندما تقدم للزواج من الدكتورة عفاف كما اتفقا رفض والدها في البداية، بحجة أنهما غير متكافئين اجتماعيًّا، ازداد عنادها هي وإصرارها على قبول الزواج من الدكتور عبد الله، وأكدت لوالدها أنهما لا يريدان منه شيئًا، فهو الآن طبيب يشق طريقه نحو النجاح والشهرة، يؤدي

عمله في الجامعة ومستشفى قصر العيني، وبعد قليل ستكون له عيادته الخاصة به، وأمام إصرارها وافق والدها مشترطًا ألا تطلب منه المساعدة لها أو لعبد الله في يوم من الأيام.

تمت الخطبة سريعًا، والزواج أيضًا لم يستغرق طويلًا، بضعة شهور كان كل شيء منتهيًا، وأقيم العرس في أحد النوادي الشهيرة على النيل، وانتقل هو وزوجته للإقامة في شقة أخرى بالمنيل ليكونا بالقرب من العمل في الجامعة ومستشفى قصر العيني، ثم بدأنا نتبادل الزيارات.

بعد الزواج جهزا معًا عيادة خاصة لهما أسفل شقتهما، وبدأ كل واحد منهما العمل بها بمواعيده الخاصة به.

شهور قليلة مرت على الزواج، وأعلن الدكتور عبد الله أن زوجته حامل، فرحت الأسرة جميعًا بالخبر، وبدؤوا ينظرون لي وهم يرددون:

- عقبالك يا فريدة.. عقبالك يا فريدة.

بدأ قلقي فعلًا يزداد مع مرور الوقت، ولم يتم العام إلا وهما قد أنجبا (فاروق)، الاسم الذي اختاره والدي لمولودهما الأول.

ضاقت الدنيا أمام عيني، كنت شديدة الفرح لأخي وزوجته، لكن كنت لا أحب أن أكون في هذا الموقف، أو أن أوضع في هذا الاختبار، حتى لو كان تأخر الحمل مسألة وقت كما يؤكد الطبيب في كل مرة.

مرت الأيام سريعة، كنت أشعر بأنني أجري في سباق للحاق بالدكتورة عفاف، لم يكن مصطفى يهتم لتأخر الحمل، بل كان أحيانًا يلمح الدموع تترقرق في عيني، فيقول بصوت حنون:

- لا تقلقي، ولا تفكري أبدًا في هذا الموضوع، وكما يؤكد الطبيب أنها مسألة وقت إن شاء الله لا غير.

كان يومًا مبهجًا، يوم الثاني والعشرين من فبراير عام 1958، عندما جاء مصطفى وهو في قمة الفرح، يخبرنا بتوقيع ميثاق الجمهورية المتحدة بين مصر وسوريا تحت اسم: الجمهورية العربية المتحدة. أول أحلام عبد الناصر نحو توحيد البلاد العربية كلها، وعندما ضحكنا أنا وماما زينب كثيرًا، في البدء اعتقد بأننا نضحك فرحًا للوحدة، فتمادى هو في الحديث بإعجاب عن عبد الناصر والثورة والوحدة، وعندما تمادينا نحن في الضحك والفرح، توقف عن الكلام، وسألنا متعجبًا:

- ما الأمر؟!

قالت ماما زينب وهي تضحك:

- الوحدة العربية.. حلم عبد الناصر، وجمال.. حلمك.

ولم يفهم مصطفى، فقالت:

- فريدة حامل يا مصطفى.

فرح مصطفى فرحًا شديدًا، وأخذ يردد غير مصدق:

- ماذا تقولين؟! فريدة حامل؟! سيكون عندي ابن اسمه جمال. يا كرمك يا رب!!!

تحقق الحمل أخيرًا بعد العام الثالث من الزواج، فرحنا به جميعًا فرحًا شديدًا، وكان أكثرنا فرحًا ماما زينب نفسها، التي كانت دائمًا تقول:

- نفسي أشوف ولادك يا مصطفى قبل ما أموت.

طلبتُ إجازة من العمل، بناء على نصيحة الطبيب، الراحة التامة خاصة في الشهور الأولى، لا داعي لركوب المواصلات، والانتظار طويلًا في المحطات، والجري وراء الأتوبيسات، ورحَّب مصطفى بهذه النصيحة، حتى إنه طلب مني أن أتقدم بطلب الإجازة عامًا كاملًا؛ مدة

الحمل، وثلاثة أشهر أخرى بعد الميلاد، واكتفيت بطلب إجازة لمدة ثلاثة أشهر فقط مشفوعة بتوصية من الطبيب.

مرت الأيام جميلة، متتالية، لا جديد فيها، حب مصطفى يزيد يومًا بعد يوم، وحب أمه لا يقل عن حب أمي لي، رعايتها لي في كل شيء، في المأكل والمشرب، والملبس، عمل الشقة وتنظيفها وتجهيز الطعام أعفتني منه، وأوصت مصطفى أن يأتي بخادمة تقوم بعمل البيت على أن تتحمل هي نفقتها من مالها الخاص راحة لي، حتى انقضتْ شهور الحمل، ووضعتُ المولود الأول (جمال)، كان فرح أسرتي به لا يقل عن فرحهم بميلاد فاروق، وفرحت به أم مصطفى فرحًا شديدًا، وكانت تؤكد دائمًا أنه شبه جده الأستاذ شاكر رحمه الله.

كان جمال هو حياة مصطفى الجديدة، كان يخشى الإنجاب خوفًا من أن يقل حبي له، لكن ما حدث العكس، بدأ جمال يشاركني في حب والده، عندما يدخل البيت يسأل أولًا عن جمال، نومه واستيقاظه، أكله وشربه ورضاعته، كيف يلعب، وكيف يضحك، ويغضب كثيرًا لو علم أنه كان يبكي.

ويشاركني في الهدايا أيضًا، حتى إنه خلال عامه الأول لم يتذكر مصطفى عيد ميلادي، وعندما ذكرته به بعد مرور أسبوع كامل، اعتذر وقال عيد ميلاد جمال هو عيد ميلادينا معًا. ثم جاء عيد زواجنا الرابع، نسيه مصطفى أيضًا للمرة الأولى وعندما ذكَّرته به، سكت، وابتسم بخجل قائلًا:

- هذه المرة لن ينفع الاعتذار. فعيد زواجنا هو عيد ميلادي الحقيقي.

وفي اليوم التالي فاجأني بـ (عزومة) على العشاء، وعُقد ولا أروع من الذهب في علبة من القطيفة الحمراء، وتحته في نفس العلبة كانت المفاجأة الحقيقية، تذكرتين لحفلة أم كلثوم في النادي النهري.

كانت الليلة ممتعة فعلًا، لم نعشها حتى في شهر العسل، عندما كنا بمفردنا، أعاد كلانا اكتشاف الآخر من جديد، وكأننا يعرف بعضنا بعضًا من أيام معدودات، وأعاد لي مصطفى الحب والحنان كله الذي كان في طريقه للروتينية بعد المولود الأول، كان كمن ينبش في النار

ليزيدها اشتعالًا. وقد زادتها أم كلثوم اشتعالًا في تلك الليلة التي كانت ولا ألف ليلة.

كان جمال يكبر أمام أعيننا، يزحف ويحبو، ويتعلم المشي (تا تا) مع الجميع وخاصة مصطفى وماما زينب التي لم تبخل عليه بلحظة حب واحدة في أي وقت. كانت أمًّا للجميع فعلًا، لم تشعرني بتربية جمال، أذهب للمدرسة وأنا مطمئنة، وكانت نصائحها الطبية دائمًا منجدتي خاصة في الأوقات المتأخرة من الليل، عندما يصرخ جمال ونحتار جميعًا معه.

❋ ❋ ❋

(3)

حصلت فريال على بكالوريوس التجارة، وسريعًا التحقت بالعمل في ديوان وزارة المعارف (التربية والتعليم)، وبعد بقليل تقدم (علي) زميل الجامعة، لخطبتها ورحبت الأسرة به.

كان علي في الفرقة الرابعة عندما التحقت فريال بالكلية، وجمعتهما المكتبة معًا لأول مرة، عندما ذهبت لعمل الأبحاث المطلوبة منها، عرفت (علي)، وساعدها في عمل الأبحاث، وأعجبت به وبجده واجتهاده، وتفوقه في الدراسة، فكان دائمًا من أوائل فرقته، واستمرت العلاقة عامًا دراسيًّا كاملًا، حتى تخرج هو أولًا، فعين معيدًا في الكلية.

كانت فريال تحكي لي كل شيء، عندما رأته للمرة الأولى في المكتبة، وإعجابها الشديد به، ثقته بنفسه، تواضعه الشديد، إخلاصه في تقديم النصيحة، ثم مساعدته لها، وحصولها على تقديرات عالية بفضل الله أولًا ثم نصائحه وتوجيهاته، اهتمامه الشديد بها، سؤاله الدائم عنها، وقوفه دائمًا بجانبها، حتى إنها طلبت مني دعوته في عرسي.

كانت تحبه حبًّا شديدًا، ترى فيه الرجل الذي يمكن أن يؤتمن على سعادتها، الوقوف في وجه الدنيا من أجلها، تحمَّل المسؤولية مبكرًا بعد وفاة والده في عامه الأول الجامعي، فاستطاع أن يوازن بين الدراسة في الجامعة والمذاكرة من ناحية، والعمل في مقهى صغير بالهرم من ناحية أخرى، حتى استطاع أن يتم تعليمه، وفي نفس الوقت كان مطالبًا برعاية إخوته الآخرين.

ساعد أمه في زواج أختيه الصغريين، واشترى لهما كل ما تمنياه، لم يبخل عليهما بأي شيء، وبالرغم من إصرار والدته على أن يعيش معها بعد الزواج، رفض هو، حتى يترك الشقة لأخيه الأصغر الذي لا يزال في الصف الثالث الإعدادي، وتطييبًا لخاطرها وحتى تكون مطمئنة، قال بأنه سيقيم بالقرب منها ليكون وكأنه يعيش معها في شقة واحدة.

حكت لي عن مقابلاتهما في الجامعة، والهدية الأولى خاتم رائع من الذهب عندما تناول الراتب الثاني، وعندما غضبتْ، طيَّب خاطرها واعتذر بأن الهدية الأولى يجب أن تكون لأمه التي تحملت معه الكثير، وهي الثانية في حياته بعد أمه فلها الهدية الثانية .

وحكت لي -أيضًا- عن اتفاقهما معًا على الزواج بعد تخرجها، على أن يكون هو قد أتم دراسة الماجستير، وفعلًا في نفس العام الذي تخرجت هي فيه في الكلية حصل هو على الماجستير، وتقدم لها كما وعدها، ووافقت عليه الأسرة خاصة وهو يقيم بجوار أسرتي في حي السيدة زينب.

كانت الحياة بالنسبة إليهما غاية في صعوبتها، مرتبات الحكومة ضعيفة، لا تحقق حلمًا، ولا تبني مستقبلًا، ولا تحقق حتى الحياة الكريمة لأسرة من ثلاثة أفراد، كان علي موزعًا بين مصاريف أسرته وأمه من ناحية، والبحث عن شقة جديدة بعيدًا عن أمه من ناحية ثانية، ومصاريف الخطبة وهدايا فريال من ناحية ثالثة، ومصاريف الدراسة وشراء الكتب والمراجع من ناحية رابعة.

بدأ علي في البحث عن عمل آخر بعد الظهر، وساعده أستاذه في الجامعة والمشرف الخاص على رسالة الدكتوراة في الحصول على وظيفة محاسب في المكتب الخاص به؛ فبدأت ظروفه تتحسن قليلًا بالنسبة للمصاريف المطلوبة منه.

طالت فترة الخطبة، كانت الحياة وصعوبتها أقوى منهما، لكن تمسك كل منهما بالآخر كان أقوى من كل هذه الأحداث والمشكلات.

استطاع علي خلال العامين أن يجد شقة مناسبة بالقرب من أمه، ويعيد تجهيزها من جديد، ونقل إليها الأثاث الذي اختاره هو وفريال معًا، كانت فرحة الجميع لا توصف، خاصة وأن علي أصر على أن تكون مناقشة رسالة الدكتوراة يوم العرس؛ لتكون الفرحة فرحتين، وفعلًا كان له ما أراد.

كانت الأحداث تمضي مسرعة، زواج الدكتور عبد الله، وحمل زوجته وإنجابه الطفل الأول، ثم حملي وإنجابي (جمال)، وزواج فريال وعلي، وتخرج محمود من كلية الهندسة، وفرحة الجميع به خاصة والدي الذي كان يشعر بأنه أوشك على إتمام رسالته في الحياة، والتي لن تكتمل إلا بزواج الدكتور عبد الرحمن والمهندس محمود.

وكانت الحياة ممتعة في تعاقبها وتتابعها، وسريعًا تحقق الحمل الثاني، تقريبًا بعد عام ونصف، لم يكن في الحسبان أن يأتي بهذه السرعة، بدأت أشكو الحياة وصعوبتها لمصطفى وأمه، العمل من ناحية، وجمال من

ناحية ثانية، ثم الحمل الجديد الذي لم يكن على البال ولا على الخاطر من ناحية ثالثة، وكانت ماما زينب تحاول التخفيف عني، بأنها معي، ولن تتخلى عني، وأنها لو أنجبتُ فريق كرة كاملًا لن تتركني، وتقول دائمًا:

- "المال والبنون زينة الحياة الدنيا".

- الأولاد عزوة.. الأولاد هبة من ربنا.

- أعز من الولد ولد الولد.

وجاء الابن الثاني (عبد الحكيم) الذي فرح به الجميع، حتى والدي الذي عاتب مصطفى مازحًا:

- ما هذا يا مصطفى؟! (جمال وعبد الحكيم) مجلس قيادة الثورة عندنا في البيت؟!

ضحك الجميع، وقال مصطفى، وهو يشير بأصابعه:

- اتفقت مع فريدة على خمسة فقط.

بعد ميلاد عبد الحكيم بفترة قصيرة، ربما شهر أو أكثر قليلًا، جاء مصطفى وهو في قمة الحزن، وعندما سألناه، أخبرنا بنهاية الوحدة مع سوريا بانقلاب عسكري في دمشق، وانفصال سوريا عن مصر

وإعلان (الجمهورية العربية السورية)، ووأد حلم الوحدة العربية الذي تبناه عبد الناصر.

أصيب مصطفى بالإحباط والحزن الشديد، ظل عدة أيام لا يخرج من المنزل، صامتًا معظم الوقت، لا يتحدث مع أحد، شارد الذهن، انقطع عن العمل هذه الفترة، وعندما اتصل به أصدقاؤه ومديروه يطمئنون عليه ويسألون عن سبب غيابه، طلب إجازة، فارقته الابتسامة، لم يعد يسأل عن الأولاد: جمال وعبد الحكيم ، وتقريبًا لا يتذكرهما إلا عندما يقترب منه جمال، أو يسمع صوته: بابا بابا.

حاولنا في البداية أنا وماما زينب أن نخرجه من هذه الحالة، وزارنا إخوتي وزوجاتهم وأولادهم، وامتلأ البيت بالحركة والكلام والمناقشات التي شارك فيها صامتًا، فعرضنا عليه الذهاب لزيارة أخته سماح، رفض، فجاءت سماح والأستاذ إبراهيم لزيارتنا والاطمئنان عليه، وأخذ الأستاذ إبراهيم بخفة دمه يهون عليه الموقف مؤكدًا له أن عبد الناصر نفسه، وهو صاحب الحلم، ربما لا يكون حزينًا مثله. ويؤكد له بأن مصر

كبيرة بذاتها ونفسها، وأن العرب أنفسهم هم الذين لا بد أن يسعوا للوحدة مع مصر، ليست مصر. هم الذين يحزنون لفوات الفرص، ويبكون دمًا، ليس نحن من نبكي أو نتحسر. أنا معك، كان حلمًا جميلًا، لكنه كما نقول حلم، والحلم شيء، والواقع شيء آخر. وظل معه حتى صاح به ضاحكًا:

- مصطفى.. لا تتحجج بانتهاء الوحدة، واطلب لنا العَشاء.

ضحكنا جميعًا، وكانت المرة الأولى خلال هذا الأسبوع نرى فيها ابتسامة مصطفى، ونزل الاثنان هو والأستاذ إبراهيم وأحضرا عشاء خاصًّا من الخارج، وتكفل الأستاذ إبراهيم بدفع الحساب -بالرغم من أنه كان يشكو ضيق الحال- مجاملة لمصطفى.

وصل والدي سن المعاش، كان حزينًا، يردد دائمًا بأن هذا أول مسمار في النعش، وعليه أن يستعد للرحيل الذي اقترب، حاولنا جاهدين تطييب خاطره، وأنه قد آن الأوان ليستريح، وكان هو يؤكد دائمًا بأن راحته في العمل، الخروج، قضاء مصالح الناس، راحته في دعاء مسكين نظير قضاء حاجة، أو فرحته لوقوفه بجانب المظلوم في وجه الظالم.

وجد والدي متعته الوحيدة في ملاعبة الأطفال (فاروق وجمال)، وكان عبد الحكيم لا يزال في المهد صبيًّا، عندما تأتي أسرتي لزيارتنا، أو نذهب نحن لزيارتهم، كانوا يفرحون جدًّا بـ (جمال)، وعندما نتقابل مع الدكتور عبد الله وأسرته هناك، كان والدي يتحدث ضاحكًا:

- جمال وفاروق، الاثنان معًا! بسم الله ما شاء الله.

وكان مصطفى يضحك ويقول:

- فاروق وجمال.. الملكية والجمهورية في مكان وزمان واحد.

كان والدي يلاعبهما معًا ألعابًا كثيرة مختلفة، مثلًا يحمل فاروق على ظهره، ويمشي بضع خطوات، ثم يتوقف، ويوهمه بأنه سيوقعه في الأرض، وهو يصرخ ضاحكًا، وينزل من على ظهره، حتى نجد عيني والدي تهطل بالدموع من كثرة الضحك.

ثم يأتي دور جمال، ويلعب معه نفس اللعبة، وجمال يفعل كما كان يفعل فاروق، ثم يلاعبهما معًا في وقت واحد، وكان الدكتور عبد الله ومصطفى يساعدانه في ذلك بأن يرفعا رجلي أحدهما على ظهر والدي ثم يرفعا رجلي الآخر ويجعلهما متشابكتين، ثم يمسك كل منهما

-فاروق وجمال- يده بيد الآخر، ويسير والدي، وهما على هذه الحال، حتى يتمايل والدي وهو يردد في قمة الضحك:

- الجمل سيبرك.. الجمل سيبرك.

فيقفزان بسرعة وهما يصرخان في قمة الفرح.

وبعد كل هذا كان والدي ينظر لجمال، وعيناه مليئة بالدموع من كثرة الضحك ويقول:

- المشكلة أن اسمك جمال.

ويضحك الجميع.

تخطى جمال عامه الثالث، كان مصطفى مشغولًا بمتابعة الثورة في اليمن، وموقف العالم وخاصة الدول العربية، ومصر عبد الناصر بالتحديد منها.

كان عبد الناصر مؤيدًا للثورات في كل مكان، داعمًا لكل حركات التحرر سواء في الدول العربية أو الإفريقية بداية من السودان، والجزائر وتونس والمغرب والصومال وغيرهم سواء في إفريقيا أو آسيا. وكانت الثورة في اليمن من ضمن هذه الثورات التي ساندها عبد الناصر فأرسل

الكثير من الجنود لمساندتها وقيام الجمهورية، وظل المصريون هناك من بداية الثورة 1962 حتى قيام حرب 1967، مما كان له أثر كبير على كفاءة الجنود المصريين في هذه المعركة، وانتهاء الأمر بالهزيمة فيما بعد واحتلال سيناء بأكملها.

للمرة الأولى أرى مصطفى يخالف عبد الناصر في فكره، فعارض بشدة فكرة إرسال جنود مصريين لليمن، لمساندة قيام الجمهورية اليمنية، خاصة وأن العدد كان ضخمًا، وحتى ذلك الوقت كان المصريون لا يزالون يعانون من آثار العدوان الثلاثي الذي خلَّف الخراب والدمار على مصر كلها. وكان من رأيه مساندة الثورة في اليمن، من القاهرة، كما حدث مع السودان والثورة الجزائرية من قبل.

كان مصطفى يطرح هذه الأفكار بصوت عالٍ، يشاركه فيها والدي وإخوتي، وكان الأستاذ إبراهيم يدافع عن عبد الناصر قائلًا بأن هذا دائمًا قدر الزعيم، وكان والدي يقول:

- فعلًا -كما تقول- هذا قدر الزعيم، لكن عبد الناصر أبناؤه يموتون في سبيل قضايا أخرى غير قضاياهم، وبلاد أخرى غير بلدهم، وثورات أخرى غير ثورتهم.

ظلت الثورة مشتعلة ضد المملكة المتوكلية اليمنية تقريبًا ثماني سنوات، قامت خلالها حرب أهلية بين الموالين للمملكة الذين تلقوا الدعم من السعودية والأردن وبريطانيا، والموالين للجمهورية الذين لم تتخل عنهم مصر عبد الناصر، تدفع من دماء أبنائها وأقواتهم في سبيل قيام الجمهورية اليمنية.

مرت الأيام، وكبر جمال حتى بلغ السادسة من عمره، سن الالتحاق بالمدرسة، تعلم على يد ماما زينب الحروف الهجائية، وقراءة القرآن في المصحف حتى حفظ معها قصار السور، وعندما أراد مصطفى أن يلحقه بالمدرسة القريبة من البيت، على أن نأخذه معنا في الصباح، ويرجع هو بمفرده في نهاية اليوم الدراسي إذا تأخرنا عليه، ويبقى عبد الحكيم مع ماما زينب التي تتولى رعايته، ويؤنسها في ذات الوقت، أصر والدي على أن يذهب هو بجمال إلى المدرسة ويقدم أوراقه بنفسه، كما فعل لفاروق العام الماضي، فكلاهما عنده سواء، هكذا قال.

كان الصباح جميلًا عندما استيقظ جمال مبكرًا، وارتدى زيه المدرسي الجديد لأول مرة، وأخذ حقيبته الجديدة وسار ثلاثتنا -أنا ومصطفى

وهو- معًا، ودَّعناه أمام المدرسة على أن أعود له مبكرًا قبيل نهاية اليوم الدراسي إن شاء الله، وانصرفنا.

كان الموقف صعبًا عليَّ، بالرغم من أني كنت أتركه في المنزل مع ماما زينب وعبد الحكيم، لساعات طويلة أثناء العمل؛ لكن عندما ودَّعته أمام المدرسة لم أتمالك نفسي وبكيت. أحسست بأني لن أراه إلا بعد عشرين عامًا، عندما ينهي تعليمه كاملًا.

مرت ساعات العمل طويلة، استعجال الوقت، وقبل موعد نهاية اليوم الدراسي، استأذنت من مديرة المدرسة، وأسرعت للحاق بجمال قبل موعد جرس انصراف التلاميذ، وصلت مبكرًا وانتظرته أمام باب المدرسة، لمحني من بعيد فبكى وهو يجري نحوي:

- ماما.. ماما..

- حبيبي جمال.. ما لك تبكي؟!

- تركتِني بمفردي وذهبت مع بابا للعمل.

- أنت لست بمفردك.. أنت في مدرسة ومعك زملاؤك.. ألا تحب أن تكون رجلًا كبيرًا؟

- بلى، لكن لا تتركيني ثانية.

- يجب أن تعتمد على نفسك ولو قليلًا، ثم أنا لن أتركك بمفردك.

مسحت دموعه بأطراف أصابعي، وقبلته، وانصرفنا.

كانت ماما زينب هي الأخرى شديدة الحزن لفراقه، بالرغم من وجود عبد الحكيم، هي التي اعتادت وجود الاثنين معًا.

قابلته فرحة فاردة ذراعيها:

- أهلًا أهلًا.. حبيبي. ماذا فعلت اليوم؟

- حبيبتي (تيتة).. الحمد لله. جلست في الصف الأول. وقرأت لهم ألف باء. وقرأت لهم في القرآن.

- ممتاز..

- وهي تقلب في حقيبته، لمحت (الساندويتش).. ما هذا يا جمال؟! ألم تأكل (الساندويتش)؟!

وعندما رجع مصطفى كان فَرِحًا بلقاء جمال، ثم تناولنا جميعًا الغداء.

❋ ❋ ❋

(4)

تزوج أخي الدكتور عبد الرحمن من الدكتورة (غادة) زميلته في مستشفى الدمرداش، أصغر منه بخمس سنوات تقريبًا، تخرجت في كلية الطب، جامعة عين شمس، وتقابلا لأول مرة في المستشفى مع أول يوم عمل لها.

لم يكن الدكتور عبد الرحمن متحدثًا أو متكلمًا حتى معنا في المنزل -أنا وفريال- تشعر بأنه موظف مخلص يريد أن ينجز عمله سريعًا، وعلى أكمل وجه، أو كأنه نزيل في فندق فترة معينة وسيرحل، قليل الكلام، أو لا يتحدث إلا فيما يفيد، هادئ تمامًا، يميل إلى الانطوائية، ثم جاءت الدراسة الثانوية، وأكدت هذه الصفات عنده، وربما أضافت إليها صفاتًا أخرى، حيث كان يقضي معظم وقته بمفرده، البعد عن الآخرين، إطفاء الأنوار، أو الجلوس في الضوء الخافت، العزلة التامة عن العالم الخارجي، لدرجة أنه يغلق كل الأبواب والنوافذ، والتفكير فيما سيكون، وكيف سيكون.

وقته مُقسَّم ما بين الكلية والبيت حيث غرفته لا يفارقها إلا من أجل الصلاة في أوقاتها في المسجد، أو تناول الطعام معنا، وكان لا يخرج إلا بعد أن يناديه والدي أو والدتي:

- الغداء يا عبد الرحمن.

وفي أثنائه يتبادل الحديث مع الدكتور عبد الله، والذي لا يخرج عن الحديث عن الجامعة، والمذاكرة والكتب والمراجع، ونصائح الدكتور عبد الله من أجل الحصول على التقديرات العالية، وسؤال والدي الدائم له هل يحتاج نقودًا لشراء مراجع أو غيره، وكان هو يؤكد في كل مرة أنه لا يحتاج شيئًا، شاكرًا والدي.

عندما تسلم العمل في مستشفى الدمرداش، عرض عليه والدي البحث عن فتاة طيبة، مناسبة للزواج، ورفض هو وقتها حتى يكون مستعدًّا، فلا يزال الطريق أمامه طويلًا.

قرر الدكتور عبد الرحمن أن يواجه صعوبات حياته بمفرده، دون أن يشرك فيها أحدًا، حتى والدي، على اعتبار أن هذه حياته الخاصة به هو،

وليس لأحد دخل فيها، فكنا نعرف أخباره بعد ذلك من فلتات لسانه، وسقطات كلامه، وعندما يعاتبه والدي على أنه لم يخبره بها، يقول بأنها أمور بسيطة ولا يريد أن يشغله معه.

في إحدى المرات، وكانت في أوائل استلامه للعمل، شخَّص حالة طفل في سن العامين بالخطأ، وتسبَّب في إحداث مضاعفات جسيمة له، كادت أن تودي بحياته لولا عناية الله التي أحاط الطفل بها، ولطفه بالدكتور عبد الرحمن نفسه بعد أن توعده أهل الطفل، وأكَّدوا على أنهم سيشكونه في النقابة، والنيابة، وسيدمرون مستقبله، لكن نجاته من الموت المحقَّق، دفعتهم للتراجع حامدين الله على كل حال.

عاش الدكتور عبد الرحمن فترة من أصعب فترات حياته، انقطع عن العمل، لازم حجرته، لم يكن يخرج منها إلا للضرورة القصوى، حتى الصلاة في المسجد انقطع عنها، وعندما دخلنا أنا وفريال عليه في إحدى المرات لنطمئن عليه، أو نخفف عنه، وجدنا الحجرة تكاد تكون خالية من الكتب والمراجع الطبية بعد أن قام بجمعها ووضعها أسفل سريره، ثم فوجئنا بأنه يستخدم البالطو الأبيض كملابس للنوم.

كان الموقف غاية في الصعوبة علينا نحن أولًا، أن نرى شيئًا مثل هذا، حُلْم كجبل ينهار أمام عينيك، فما بالك إذا كان صاحب الحلم هو أخوك نفسه، كان المشهد مبكيًا فعلًا، لكن لن يقبل أحد بهذا الوضع، تماسكت أمامه وأمام فريال التي لمحت الدمعة تتحرك في عينيها، وجعلت أوكد له، وبلهجة قوية، أن الأمور لا تستحق كل هذا، إرادة الله نافذة نافذة، بأي شكل ستكون، سواء نجا الطفل أو مات، وما هو إلا سبب من أسباب تنفيذ هذه الإرادة، وأن هناك الكثيرين ممن فقدوا حياتهم بسبب أخطاء الأطباء، وأنه لا يزال في أول الطريق وسيقابل الكثير مثل هذه المواقف، وربما تكون الأصعب.

أصبحت حجرة عبد الرحمن مجتمعنا، نجلس فيها جميعًا معظم الوقت، حاول الجميع أن يخرجه من هذه المحنة، وبذل الدكتور عبد الله مجهودًا كبيرًا في التخفيف عنه، فهو ليس أول دكتور يحدث معه هذا الموقف، وأن عناية الله أحاطت بالطفل، ولم يحدث شيئًا، وأن هناك الكثير من الأطباء يتسببون في أمور يطلق عليها بالفعل "كوارث".

وبعد فترة ليست قصيرة، تقريبًا أسبوعين من العزلة، فاجأنا الدكتور عبد الرحمن بقراره، اعتزال مهنة الطب نهائيًّا، والبحث عن أي عمل آخر، محملًا نفسه مسؤولية أنه كاد يتسبب في وفاة الطفل بخطأ بسيط في تشخيص حالته، وظل مُصرًّا على هذا القرار، حتى جاءه الدكتور عبد الله ثانية، وأكد له كلامه السابق، ثم عليه أن يستمد القوة من مثل هذه المواقف، فهو لا يزال في أول الطريق، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال: "كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"، فالله لم يغلق الباب أمامهم، وإنما أعطاهم الفرصة ثانية، التوبة، وأنت مثلهم، أمامك الفرصة قائمة، محاولة ألا يتكرر الخطأ مرة أخرى فقط. وداعبه وهو يضحك قائلًا:

- ثم لو أن كل دكتور أخطأ في عمله اعتزل مهنة الطب، فلن يكون هناك أطباء في هذا البلد.

خرج الدكتور عبد الرحمن من عزلته، مقتنعًا بنصائح الدكتور عبد الله، عازمًا على أن يبدأ الطريق من جديد، فأيقن أنه لم يتعلم جيدًا،

أو أنه لم يعط نفسه الفرصة اللازمة للتعلم الصحيح، فأصرَّ بعد هذا الموقف على أن يكون طبيبًا ناجحًا، ممتازًا، أعطى نفسه الفرصة ليتعلم أكثر، أو بدأ يتعلم من جديد، يلازم الأطباء، الأساتذة الكبار، في غرفات الكشف الخاصة بهم في المستشفى، وينتظر فحصهم للحالة وتشخيصهم لها، والدواء، والنصائح الواجب الالتزام بها، يتنقل بين جميع الأقسام والتخصصات، دائمًا يقول بأن طبيب الأطفال لا بد أن يكون ملمًّا بكل شيء، يقضي معظم الوقت في المستشفى، أو في مستشفى الدكتور إسماعيل نصير أستاذه في الجامعة، يقوم هو بالكشف على الحالة أولًا، والتشخيص الأولي قبل المرور على الدكتور إسماعيل. وكان الدكتور إسماعيل يثني عليه دائمًا مع قليل من التوجيهات، ثم أعطاه مواعيد عمل خاصة به في المستشفى يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، ثم خصص له موعدًا يوم الاثنين في وسط الأسبوع.

خمس سنوات كاملة، لم تكن سنوات عمل وجمع المال، بقدر ما هي سنوات تعلم حقيقي مكتسب من تجارب الحياة، وخبرات الأساتذة، الاطلاع على كل جديد في عالم الطب عامة، وطب الأطفال خاصة.

بدأ نجمه يسطع في سماء طب الأطفال، أصبح اسمه معروفًا، يطلبه المرضى بالاسم، يعتمد عليه الأساتذة الأطباء في مستشفى الدمرداش، يثقون فيه، ويسندون إليه علاج بعض الحالات الخطيرة والغريبة، يستقبل الأطباء الجدد، ويوجههم إلى طريقة العمل، وكيف سيتعاملون مع المرضى، فالدراسة شيء، والعمل شيء آخر هكذا يقول لهم دائمًا، ويدلل على صحة كلامه بما حدث معه هو شخصيًّا في بداية عمله في المستشفى، وكان من بين الذين استقبلهم الدكتورة غادة عندما تسلمت عملها معه.

الدكتورة غادة فتاة جميلة، طويلة، شقراء، عيناها خضراوان، قوامها متناسق، تبدو عليها آثار النعمة، معطفها الأبيض تفوح منه رائحة أغلى العطور وأذكاها، بدون البالطو الأبيض لا يظن أحد بأنها طبيبة، أشبه بالممثلات، المذيعات، الفتيات اللواتي يطللن علينا من التلفاز، وشاشات السينما، فيها شيء من الكبر، الغرور، ربما، وربما الثقة الزائدة في النفس، تعرف أنها جميلة، ويلاحقها الناس جميعًا؛ الأطباء والمرضى، بعيونهم في كل مكان، إلا الدكتور عبد الرحمن، فدائمًا يقول:

- لا أريد أن أكون مثل الآخرين.

ويسأل دائمًا:

- ما الجدوى من الإعجاب بفتاة يعجب بها الكثيرون، وكلهم ظروفهم أفضل من ظروفك؟

كان عبد الرحمن يريد أن يكون مختلفًا عن الآخرين في كل شيء، لا يهتم بالشكل أو الملبس، يؤكد دائمًا أن آخر ما يبحث عنه هو المظهر، هو يريد الروح، الجوهر من الداخل، القلب بم ينشغل؟ العقل فيم يفكر؟ يبحث عن الفتاة كشريكة حياة، تتقاسم معه الحياة بحلوها ومرها، تصنع له السعادة الحقيقية التي يتمناها، ليست الفتاة كزوجة فقط.

بدأت الدكتور غادة تتقرب إليه، تتحدث معه كثيرًا في مختلف الموضوعات، ربما الرياضة، وربما السياسية، وكان هو يدهش لهذا، ما الذي يجذب فتاة مثلها للسياسة أو الرياضة، حتى إنه عندما تختلف معه في الرأي، يصيح في وجهها مبتسمًا:

- طوال عمري أقول بأن الفتاة ليس لها سوى المطبخ، ما لك ومال السياسة والرياضة؟ تحدثي في الموضة والفساتين، في السينما.. ما رأيك في فيلم السندريلا الأخير؟

- ستظل هكذا.. لا تستوعب أنني يمكنني التحدث في أي شيء مثلك، ولي آرائي الخاصة التي ربما تنتصر على رأي الكثير من الرجال. الفتاة اليوم من الممكن أن تشارك في كل شيء، أنا اليوم زميلة لك في العمل، دكتورة مثلك، وربما أكون غدًا مديرة عليك.

- (وهو يضحك) مديرة عليَّ؟! الأفضل لي وقتها البقاء في البيت.

بدأ الدكتور عبد الرحمن ينجذب إليها فعلًا، ويعبر عن هذا صراحة، كانت البداية في عيد ميلادها، باقة ورد كأنها من الفردوس في المستشفى، فرحت بها فرحًا شديدًا، أعقبها اتصال منها، شكرته فيها على الهدية، ودعته لحضور حفلة عيد ميلادها في بيتهم.

أصرَّ عبد الرحمن على أن نكون معًا، ذهبنا، كان الجو رائعًا، الجميع فَرِحٌ، رحبت بنا الدكتورة غادة ترحيبًا شديدًا، وعرَّفتنا بأسرتها؛ والديها وإخوتها، وبعد عودتنا اتصل بها، شكرها على حسن استقبالنا وضيافتنا، ثم اعترف لها بحبه، لم ترد في وقتها كما قال لي هو، ولم تأتِ إلى العمل في صباح اليوم التالي، حتى إنه عاتب نفسه بعد ذلك على أنه أفصح عن حقيقة مشاعره وحبه، وأنه بذلك لا فرق بينه وبين بقية الناس الذين

يعجبون بها في المستشفى، وتوقع بأنها عندما تأتي، أو يقابلها ثانية، لن تحدثه، أو تتجاهل اهتمامه بها كغيره، لكنه فوجئ بها تعترف له بحبها هي الأخرى، وتحدثه عن مشاعرها تجاهه منذ اليوم الأول لقدومها المستشفى واستلامها العمل، وكانت تسأل نفسها عن الغريب في شخصيته، أو لماذا هو مختلف عن الآخرين؟!

بدأ المقربون منهما في العمل يتحدثون سرًّا عن علاقتهما، ثم علانية في صورة دعابة عابرة، ثم باركها الجميع -علاقتهما- مطالبين بإتمامها في أقرب وقت، وفعلًا اتفقا الاثنان -الدكتور عبد الرحمن والدكتور غادة- على الزواج، وذهبنا جميعًا؛ والدي ووالدتي، وعبد الله وعبد الرحمن، وأنا ومصطفى، وفريال وعلي، وتم الاتفاق على كل شيء، وتمت الخطبة.

بضعة شهور، بدأنا نلمس تغيرًا في حياة عبد الرحمن، كثرت زياراته لنا -أنا وفريال- في منازلنا، اللعب مع الأطفال في أوقات فراغه، حتى تعلق به جمال وعبد الحكيم تعلقًا شديدًا، فكانوا يسألون عنه باستمرار، يكثر من ممازحة والدي، وخاصة أمي، أصبح أكثر إقبالًا على الحياة، تقريبًا للمرة الأولى بدأنا نشعر بوجوده فعليًّا في حياتنا.

بضعة شهور، مدة الخطبة، وتمَّ الزواج، وانتقلا للإقامة في شقة أخرى بالقرب من بيت والدي، رغم اعتراضها في البداية، كانت تريد الإقامة في (عين شمس) لتكون قريبة من مستشفى الدمرداش، حيث عملها، وتكون قريبة في نفس الوقت من بيت أسرتها، لكن الدكتور عبد الرحمن كان عنيدًا، وصمم على رأيه، واختار الشقة في (الحلمية الجديدة) ليكون بالقرب منا جميعًا.

بعد الزواج بأشهر قليلة، خمسة أشهر تقريبًا أو ستة، أعلن عبد الرحمن عن حمل زوجته وأن والدنا سيكون جدًّا للحفيد الرابع، وداعب والدتي، وفرحنا جميعًا بهذا الخبر، وهنأنا الدكتورة غادة، التي كانت في قمة السعادة، وما هي إلا شهور قليلة أخرى حتى وضعت غادة المولود الأول لها؛ بنتًا جميلة أخذت تقريبًا كل ملامحها، فرح بها الجميع فرحًا شديدًا، حتى إن فريال داعبت الدكتور عبد الرحمن قائلة:

– الحمد لله يا دكتور.. البنت تشبه أمها جدًّا.. هذا هو تحسين النسل الحقيقي، أين أنت يا (دارون) لترى بعينيك.

كان الدكتور عبد الرحمن مختلفًا فعلًا، وعنيدًا هذا شيء مؤكد، أصر على تسمية ابنته، وهي أول ابنة في العائلة كلها، باسم ماما (عائشة)؛ فهو وعدها بذلك، إذا كان المولود بنتًا، وفرحت أمي وقتها وأخذت تدعو له وهي تبكي:

- ربنا يبارك لي فيك يا عبد الرحمن.. ربنا يبارك لي فيك يا بني.

لكن الأمور لم تكن سهلة؛ فاسم (عائشة) من الأسماء القديمة، التراثية، كما ترى الدكتور غادة ، وهي تريد تسمية ابنتها اسمًا من الأسماء الجديدة المنتشرة في تلك الفترة مثل (هدى أو ليلى)، تسأل في غضب:

- كيف تكون الأم غادة، والابنة عائشة؟!

رد عليها عبد الرحمن:

- مثلما سيكون الأب عبد الرحمن والابنة عائشة.

❋ ❋ ❋

(5)

أتم محمود دراسة الهندسة، والتحق سريعًا بالجيش ليقضي فترة التجنيد، ضابط مهندس احتياطي، ثلاث سنوات، كانت الأمور فيها غاية في الصعوبة، أرسل عبد الناصر تقريبًا نحو ثلث الجيش لمساندة الثوار في اليمن، وبالرغم من أن الأمور كانت هادئة على الحدود المصرية مع إسرائيل، إلا إنها كانت على النقيض على الحدود السورية، والاشتباكات بين البلدين -إسرائيل وسوريا- بسبب النزاع على استغلال مياه نهر الأردن.

كنا نعد الأيام، وخاصة والدتي، خوفًا على محمود من إرساله إلى اليمن، حتى انقضت السنوات الثلاث أخيرًا، واستلم محمود عمله، الذي لم يستمر فيه طويلًا؛ فقد تم استدعاؤه مرة أخرى للجيش، كانت هذه المرة أشد خطورة من المرة السابقة، الأحداث مشتعلة على الجبهات الثلاث مصر وسوريا والأردن، خطابات عبد الناصر رنانة، تجر البلاد

إلى حرب حقيقية، إجازات محمود قصيرة وعلى فترات طويلة، حصل على أول إجازة بعد أربعين يومًا كاملة، كانت الإجازة قصيرة، تقريبًا قضى معنا يومين أو ثلاثة، زارني فيها مرتين، كنا شديدي الخوف، بل شديدي الرعب، لكنه كان يؤكد لنا دائمًا بأن الأمور على ما يرام، ونحن مستعدون لإلقاء إسرائيل ومن وراء إسرائيل في البحر الأحمر.

انتقل محمود مع مجموعته إلى سيناء، كنا جميعًا هناك في منزل العائلة بالسيدة زينب، بعد أن أصرت والدتي على تناول الغداء جميعًا معًا ومع محمود قبل سفره. تناولنا الغداء وفي آخر اليوم ودع والديَّ وإخوتي، وقبلنا جميعًا وهو يبكي، وسافر إلى سيناء.

أحس والدي أنه أتم رسالته في هذه الحياة، خمسة أبناء؛ طبيبان، ومعلمة، ومحاسبة، ومهندس، من الذي يطمح لأكثر من هذا؟! أحسن تربيتهم، وتعليمهم، وزوَّج منهم أربعة؛ أنا والدكتور عبد الله والدكتور عبد الرحمن وفريال، وتبقَّى محمود الذي كان دائمًا يقول له:

- أمنيتي أن يطول بي العمر حتى أزوجك يا محمود مثل إخوتك، وأشاهد أولادك وألاعبهم مثل فاروق وجمال.

لكن كان الموت أقرب إليه، فلم يدعه ليحقق أمله.

مرض والدي، وقد تجاوز السبعين من عمره، ويئس الأطباء من علاجه، حتى إنهم سلموا الأمر كله لله، وقالوا ما هي إلا أيام، التففنا حوله، كنا كُثُر، الأسرة بأكملها، أمي والأبناء والزوجات والأحفاد، ومصطفى وماما زينب، لم يتأخر أحد، كل واحد يبذل ما يستطيع وأكثر من أجل التخفيف عنه ولو بابتسامة بسيطة تنعش فيه الأمل، لكنه كان مدركًا للحقيقة، ويعلم أنه ما هي إلا أيام فعلًا كما قال الأطباء، فكان يرثي نفسه بآيات القرآن الكريم من سورة (آل عمران): "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور". ويحدث نفسه قائلًا:

- صدق الله العظيم "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

ومرة أخرى بآية من سورة (العنكبوت): "كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العالمين". ثم دعا ربه:

– اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.. اللهم اجعلنا منهم يا رب.

. ثم ردد الشهادتين وصعدت روحه إلى بارئها.

توفي والدي، وحزن عليه الجميع حتى الأحفاد حزنوا عليه حزنًا شديدًا، وبكاه حتى مصطفى وأمه وبشدة، كان أبًا مثاليًّا بمعنى الكلمة، عاش ومات لأولاده، لم يبخل عليهم بقطرة عرق واحدة يبذلها من أجلهم، كان شريفًا، عفيفًا، أبيض اليدين. مترفعًا عن الصغائر، أو عن كل ما يقلل من قيمته أو شأنه.

بدأ عبد الحكيم يتدرج في ألعابه، يشاركه فيها جمال الذي يكبره بعامين ونصف تقريبًا، وأحيانًا فاروق في أوقات الزيارات، كنا نتابعهم بحسرة على الأيام الجميلة التي قضاها والدي مع فاروق وجمال قبل وفاته، وحرم منها عبد الحكيم.

في الثاني والعشرين من مايو 1967 استيقظ الجميع على خبر إغلاق عبد الناصر لمضيق تيران في مدخل خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية، بما يعني إعلان الحرب على إسرائيل، وهو ما حدث في الثامنة صباح الاثنين الخامس من يونية، عندما شنت إسرائيل حربًا على كل الاتجاهات.

صرخت أمي صرخة مدوية وهي تنادي:

- محمود.. ابني محمود..

بدأت الإذاعة المصرية تذيع أنباء الانتصار، وأخبار عن سقوط خمسين طائرة إسرائيلية، ونشرت الأهرام سقوط ستة وثمانين طائرة للعدو، وأن قواتنا تتوغل داخل إسرائيل، وأنها أصبحت على مقربة من تل أبيب، وبدأ الناس يتحدثون عن إلقاء إسرائيل قريبًا في البحر الأحمر أو البحر الأبيض كما قال عبد الناصر في أحد خطاباته.

وكما استيقظ الجميع على خبر إعلان الحرب، استيقظ الجميع في الثامن من يونية على خبر الهزيمة واستيلاء إسرائيل على سيناء بأكملها، الخبر الذي أكده القائد عبد الحكيم عامر بقرار الانسحاب الغير مدروس، والذي أودى بحياة الآلاف من الجنود أو وقوعهم في الأسر، وقتل الآلاف منهم بعد ذلك غدرًا بيد إسرائيل، كان الناس غير مصدقين، ويتساءلون عن النصر المزيف الذي أعلنته الإذاعة، والجرائد، ومن يتحمل هذه الهزيمة ويحاسب عليها.

في نفس اليوم الثامن من يونية، جاءنا خبر استشهاد أخي محمود. كان الخبر صعبًا على الجميع، لا نقول على أمي بمفردها، التي فقدت

الزوج والابن في أيام معدودات، وإنما على الجميع، كان محمود بخفة دمه، أيقونة المنزل، كان مرحًا، متفائلًا، ودودًا، بارًّا بوالديه، رفيقًا بي أنا وفريال، دائم الزيارة لنا أو السؤال والاطمئنان علينا بالتليفون. وبالرغم من أنه كان آخر العنقود كما يقولون، إلا أنه كان رجلًا بمعنى الكلمة، يعتمد عليه، لكن ما باليد حيلة، أو كما يقول الشاعر:

فالموت نقـــــاد على كفه   جواهر يختـــــار منــها الجياد

كان الجميع في قمة الحزن، المصائب لا تأتي فرادى، لا أعرف أيها كانت أشد ألمًا من الأخرى، فكلها كانت موجعة.

كانت الحقيقة مرة، أو هي الحقيقة المرة، لقد خسرت مصر في الحرب أكثر 80 ٪ من المعدات والأسلحة، وتم ضرب المطارات والممرات قبل إقلاع الطيران وبالتالي خسرت مصر سلاح الطيران، ثم خسرت سيناء بأكملها، ووصل الصهاينة إلى الضفة الشرقية لقناة السويس، بالإضافة إلى الاستيلاء على الجولان في سوريا وقطاع غزة في فلسطين.

سيطرت حالة من الإحباط على الشارع العربي، وفي مصر بصفة خاصة، حيث كانت الشعارات والخطب الرنانة تبعث الحماس والأمل،

وفجأة استيقظ الجميع على الحقيقة المؤلمة، نكسة مدوية. ارتدى الجميع السواد، وغابت الابتسامة عن كل وجه، وأصبح الجميع يتحدث بتنهيدة ثقيلة ملتهبة صادرة من أعماق أعماق الصدر.

كان مصطفى شديد الحزن، سقط تمثال عبد الناصر في عينيه، لم يعد يدافع عنه أو عن الثورة بصفة عامة، بل بدأ يكيل لها الاتهامات ويحملها المسئولية المباشرة عن الهزيمة التي لا تختلف عن هزيمة 1948 التي كانت أحد أسباب قيام الثورة نفسها، وعلينا الآن أن نحرر أنفسنا أولًا، ثم نتحدث عن تحرير الأراضي المحتلة في 48.

كان مصطفى يحدث نفسه بصوت مرتفع، ويبحث عن أسباب الهزيمة، (وماذا تعني إسرائيل بالنسبة للدول العربية كلها في ذلك الوقت عندما تجتمع؟!)، عبارة ذكرتني بما قاله والده عقب حرب 48 كما حكت لي ماما زينب، إلى أن جاء التاسع من يونية، وخرج علينا عبد الناصر يعلن خبر الهزيمة، ويستبدل بها كلمة النكسة، والاستعداد لتحمل المسئولية والتنحي عن منصبه والعودة إلى صفوف الجماهير.

كان الأمر أشبه بما يحدث مع الأبطال الشعبيين، بدلًا من خلع عبد الناصر ومحاسبته هو وكل من تسبب في النكسة، كما سماها، واحتلال سيناء، واستشهاد الكثيرين من المصريين خاصة في الانسحاب العشوائي، خرجت المظاهرات في كل مكان تطالب ببقاء عبد الناصر في الحكم، وهو الذي سيقود البلاد حتى تحقيق النصر، وكان مصطفى الذي انفجر بالبكاء عند سماع خطاب التنحي في طليعة هذه المظاهرات التي كانت تردد: "نريد عبد الناصر لتحقيق النصر".

أصر والدك على الالتحاق بالجيش مرة أخرى، وحاولنا -أنا وأمه- إقناعه بالبقاء معنا؛ هذه المرة ليست كما كانت في العدوان الثلاثي، تُذكِّره ماما زينب بي وبأولادنا، وتُذكِّره بنفسها، وأنه ابنها الوحيد وحاجتها الشديدة له في هذه السن، وأعادت عليه حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه أحد الصحابة يستأذنه في الجهاد فقال: "أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال ففيهما فجاهد".

بعد كل هذا أصرَّ والدك على التطوع في الجيش مرة أخرى، وعندما ذهب، وكأن الله استجاب لدعواتنا جميعًا، رُدَّ لكبر سنه، كانت المرة

الأولى التي يوصف فيها بأنه كبر سنًّا، تجاوز السادسة والثلاثين، وعندما رجع كان في قمة الحزن والانكسار، حتى إننا بذلنا مجهودًا كبيرًا في تهدئته والتخفيف عنه، ونؤكد له بأن الله سبحانه وتعالى ربما أراد بذلك أن يحقق أمنيته بالذهاب، ويحقق أمنيتنا بالبقاء، فنحن أيضًا نحتاج لمن يدافع عنا.

بمرور الأيام بدأت مصر تتعافى من النكسة، وبدأنا نسمع عن العمليات الفدائية التي يقوم بها الجيش في سيناء ومدن القناة، خاصة عملية إيلات القوية، التي بثت الثقة في نفوس المصريين جميعًا من جديد، وأصبح الحديث عن النصر واسترداد الأرض لا ينقطع.

مرت الأيام، ثلاث سنوات، انتصارات المصريين في حرب الاستنزاف مستمرة، تحصينات إسرائيل على الجانب الشرقي للقناة على قدم وساق، المطالبة بحرب شاملة لا تنقطع، إصرار عبد الناصر على تسليح الجيش، مماطلة أمريكا، إلى أن فوجئ المصريون وبلا سابق مقدمات بخبر وفاة (آخر الأنبياء) كما وصف نزار قباني الزعيم الخالد

جمال عبد الناصر يوم الاثنين الموافق الثامن والعشرين من سبتمبر عام 1970 م.

توفي عبد الناصر عن عمر اثنين وخمسين عامًا، وتوفي والدك عن عمر الأربعين عامًا.

خرج مصطفى إلى الشارع في اللحظات الأولى من سماعه الخبر، كان كالمجنون، لم نستطع رده أو إيقافه، أو حتى الحديث معه، ولم نره بعدها إلا يوم الجمعة بعد تشييع جنازة عبد الناصر يوم الخميس أول أكتوبر، عندما اتصل بنا العاملون في مستشفى قصر العيني، يخبروننا بوجوده ضمن الحالات التي نقلت إليهم عقب الجنازة.

مرض والدك مرضًا شديدًا، ونقل إلى المستشفى، لكنه تقريبًا كان كمرض جدك شاكر، مرض الحزن والحسرة، أو هو أشد، فلم يطل، ولم تنفع معه محاولات الأطباء، أسبوع كامل تقريبًا، ليس أكثر.

توفي مصطفى، وهو لم يعلم أن في أحشائي آخر أبنائه.

تقريبًا بعد وفاته بشهر واحد، أحسست بالتعب، وشكوت إلى ماما زينب، ونصحتني بالذهاب للطبيب، فذهبنا معًا أنا وهي، الذي فاجأنا بخبر الحمل.

فرحت ماما زينب بهذا الخبر، لكنها كانت فرحة الأم الثكلى، التي فقدت ابنها الوحيد، وتراه في ولديه اللذين يلعبان من حولها، ثم الابن الثالث، آخر أنفاسه في الدنيا، وكأنه لا يزال حيًّا يرزق.

فرحتُ بك أنا الأخرى فرحًا شديدًا؛ كنت أنت آخر هداياي الجميلة من والدك.

مرت شهور الحمل ثقيلة، صعبة. في الحقيقة، لم تكن شهور الحمل فقط؛ بل الحياة كلها بدون والدك غاية في صعوبتها، الشعور بالوحدة رغم وجود الجميع من حولي، كان والدك فعلًا كل حياتي.. أخواك، وماما زينب تحتاج هي الأخرى للرعاية، والعمل من ناحية أخرى، ثم أنت. كنت أقف أمام والدك في صورته المثبتة على حائط غرفتي كل ليلة، وأحكي له أحداث اليوم، أطلب منه المشورة، وأنتظره يأتيني في الرؤيا.

كانت أمي تحكي وهي تبكي، ثم قالت:

- حياة بين الحب والألم.. وها أنت قد كبرت..

ثم رددت -على طريقة الشعراء- قول الشاعر صلاح عبد الصبور:

"نموت كآلاف من يكبرون..

حين يقاتون خبز الشموس

ويسقون ماء المطر

وتلقاهم صبية يافعين حزانى

على الطرقات الحزينة

فتعجب كيف نموا واستطالوا وشبت خطاهم..

وهذي الحياة ضنينة ".

(تمت)

شحته سليم

❋ ❋ ❋

نبذة عن الكاتب

شحتة محمد السيد سليم

- حاصل على ليسانس في آداب اللغة العربية -كلية الآداب- جامعة الزقازيق.

- حاصل على السنة التمهيدية للماجستير.

- حاصل على دبلومة تربوية -كلية التربية- جامعة الأزهر.

- عضو مركزي بنادي الأدب قصر ثقافة منصور حسن (أبو كبير - الشرقية).

نشر له:

- مقالة نقدية (عناصر السرد في رواية أحلام العايشة للروائي خليل الجيزاوي) - كتاب خليل الجيزاوي وعالمه الروائي عن دار السندباد للنشر.

- قصة "إشارة مرور" المجموعة القصصية (عندما يسكت زوربا) عن دار (ضاد) للنشر.

- قصة "منى" المجموعة القصصية (الفتيات لا تحب فصل الربيع) عن دار (ضاد) للنشر.

- قصة "السفاح" جريدة القصة – العدد الثامن – يوليو 2017.

- قصة "المنظر الأخير" المجموعة القصصية (الرجال لا يتزوجون الجميلات) عن دار (ضاد) للنشر.

- قصة "آدم وحواء "المجموعة القصصية (رحيق الروح) عن دار بنت الزيات للنشر.

- مجموعة قصصية (المحطة الأخيرة) – أبريل 2019 – دار السندباد للنشر والإعلام.

- قصة "الكمين" جريدة الدستور –العدد 4333– 29 /9/ 2019.

· تحت الطبع:

- مشاعر تائهة - رواية.

- تقنيات السرد في القصة القصيرة عند جار النبي الحلو.

للتواصل مع الكاتب

phone: 01002680801

facebook: shehta selim

E-mail: shehtaselim@yahoo.com

E-mail: Shehtaselim10@gmail.com